أثر الإسلام
في تكوين الشخصية الجهادية للفرد والجماعة

الدكتور
محمد نعيم ياسين

أثر الإسلام
في تكوين الشخصية الجهادية
للفرد والجماعة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

دار الأرقم
للنشر والتوزيع
النقرة ـ شارع العثمان ـ بعد دوار الكرد. هاتف : ٢٥٦١٩١٣
ص. ب. ٤٣٢٣١ . حولي

بسم الله الرحمن الرحيم

أثَرُ الإسلامِ فِي تكوِينِ الشَّخْصِيَّة الجِهَادِيَّة للفرد والجماعة

لا تستحق أمة من الأمم أن تسمَّى مجاهدة إلا إذا تحصَّل لها مؤهلان :

المؤهل الأول ــ الدوافع القوية التي تدفع الأمة لمقاومة الشر والباطل، بشرط أن تكون هذه الدوافع مستمرة لا يوقفها إلا مفارقة هذه الحياة الدنيا، وأن تكون شاملة لا تقتصر على فرد أو جماعة دون بقية الأمة.

المؤهل الثاني ــ الأخلاق الجهادية، التي تضبط عملية الجهاد، وتحافظ على استمراريتها حتى توصل إلى الغايات المنشودة.

والحق الذي لا يماري فيه منصف أن التاريخ لم يعرف ولن يعرف دينا ولا منهجا يستطيع أن يؤهل أمة بهذين المؤهلين على أكمل وجه كما يفعل الإسلام بأتباعه وجنوده.

وتعود هذه الحقيقة إلى أن منهج الإسلام في تكوين الأمة الجهادية منهج من عند الله العليم الحكيم، الذي يعلم، وحده، طاقات الانسان،

ويستطيع أن يستثيرها ويربيها ويوجهها نحو تحقيق أسمى الأهداف وأكرم الغايات:

فأما المؤهل الأول، وهو الدافع القوي للجهاد ومقاومة القوى الشريرة في هذا العالم فقد تكفلت به في الإسلام عقيدة ربانية، تستثير إرادة الجهاد المستمرة، التي لا يوقفها ولا يحدّ منها إلا الموت الذي يُنهي الامتحان، ويفتح صفحة الحساب والجزاء.

وأما المؤهل الثاني، وهو أخلاق الجهاد، فقد تكفلت به تربية ربانية للفرد المسلم والجماعة المسلمة، بصورة عميقة وشاملة.

وبناءً على هذا التقسيم المنطقي للمؤهلات الجهادية نتناول موضوع البحث في فرعين، نخصص الأول منهما لبيان أثر العقيدة الإسلامية في تكوين الشخصية الجهادية، ونخصص الفرع الثاني لبيان أثر التربية الإسلامية في تكوين تلك الشخصية.

وسنجعل الفرع الأول ــ بإذن الله تعالى ــ في خمسة مطالب:

المطلب الأول: في أثر عقيدة الإيمان بالله تعالى في تكوين الشخصية الجهادية.

المطلب الثاني: في أثر عقيدة الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام.

المطلب الثالث: في أثر عقيدة الإيمان باليوم الآخر.

المطلب الرابع: في أثر عقيدة الإيمان بالقدر.

المطلب الخامس: في أثر بعض العقائد والتصورات الإسلامية الأخرى.

وسنجعل الفرع الثاني من هذا البحث في مطلبين اثنين، إن شاء

الله تعالى :

الأول : في الأخلاق الجهادية الفردية التي تثمرها التربية الإسلامية .

الثاني : في الأخلاق الجهادية الجماعية التي تثمرها تلك التربية .

الفرع الأول

أثَرُ العَقِيدَة الإسلامِيَّة فِي تكوِينِ الشَّخْصِيَّة الجِهَادِيَّة

نقصد بالعقيدة الإسلامية جميع القناعات العقلية والقلبية الجازمة، التي يزرعها الإسلام في قلوب وعقول أتباعه، عن الخالق عز وجل، وصفاته وأفعاله، وعن الانسان، وعلاقته بربه، ووظيفته، ومركزه، ومصيره، وعن الآخرة وما سيكون فيها من حساب وجزاء وثواب وعذاب، وتصورات إسلامية أخرى عن أمور وقضايا مهمة في حياة الإنسان.

إن أركان الإيمان كلها تتكاتف في تكوين أعظم الدوافع في القلوب المؤمنة للانطلاق والجهاد، والدفاع والهجوم والتصدي لجميع القوى المعادية.

ولبيان هذه الحقيقة نخصص المطالب الخمسة الآتية:

المطلب الأول
أثر عقيدة الإيمان بالله عز وجل

لعقيدة الإيمان بالله عز وجل أعظم الأثر في تكوين الشخصية الجهادية للفرد المسلم، والجماعة المسلمة. ويظهر ذلك من عدة جهات:

(١) أن حقيقة الإيمان بالله عز وجل تعني تحقيق العبودية الكاملة له سبحانه، والتحرر من كل عبودية لسواه. وجوهر العبودية للرب حبه وحب رسوله ﷺ. ويعني هذا الحب أن يحب المؤمن ما يحبه الله تعالى، وأن يبغض ما يبغضه الله عز وجل. وعلامة الأولى ـــ طاعة الله واتباع الرسول. وعلامة الثانية ـــ محاربة الذين يحادون الله ورسوله؛ لأن أساس المحبة موالاة المحبوب والبراءة من أعدائه، وقد كذب أدعياء الإيمان الذين لا يطيعون الله ورسوله، وكذب أدعياء الإيمان الذين لا يجاهدون أعداء الله وأعداء الرسول(١).

وهذا هو منطلق الجهاد في الإسلام: أنه ملاحقة من يكرههم الله ويكره أعمالهم حتى يثوبوا إلى رشدهم، أو تكسر شوكتهم، وليس مجرد الدفاع عن بعض المكتسبات الدنيوية، كما يقول بعض الكتاب المعاصرين.

وبذلك يتضح أن جهاد الباطل والمنكر، ومحاربة أعداء الله في الأرض، وإبطال أساليبهم في الصد عن سبيل الله، كل ذلك ثمرات أكيدة للصدق في العبودية لله عز وجل(٢).

وأما الشطر الثاني من معنى الإيمان بالله، وهو التحرر من العبودية لغير الله عز وجل، فإن له أعظم الأثر في تحصين المجتمع المسلم من

---

(١) انظر: ابن تيمية ـــ العبودية ص ٥١. طبع القاهرة ـــ مطبعة المدني.

(٢) نفسه ص ٢٠.

المصايد الشهوانية، التي ينصبها الأعداء لأبناء الأمة الإسلامية؛ ذلك أن من رضي أن يكون عبدا لله تحرر من جميع المؤثرات والضغوط الدنيوية التي اعتاد أعداء الأمة على استعمالها شباكا يصطادون بها العملاء لهم والخونة؛ لأن الوقوع تحت هذه المؤثرات يتنافى مع صدق عبوديته لربه. أما الذين يرفضون العبودية لخالقهم، فهم نقطة الضعف التي تنفذ منها جراثيم الخيانة إلى جسم الأمة؛ لأن هؤلاء سيقعون في أسر شهواتهم وأهوائهم وغرائزهم، فيصيرون أسهل فريسة للأعداء؛ يتخذون منهم الجواسيس والأولياء. والحق أن جميع البلاء الذي أصاب أمتنا وحل بديار الإسلام كان وما يزال على أيدي هؤلاء الأسارى لشهواتهم، من عبيد الدرهم والدينار، وعبيد المركز والجاه والسلطان، ممن رفضوا العبودية لله عز وجل، فصاروا عبيدا للدنيا وزينتها. فلما عرف العدو هؤلاء المرضى، وأدرك ما يعبدون من الشهوات، عرض عليهم قسطا وافرا منها، فأسال لعابهم، فساومهم على أوطانهم وأهلهم وأعراضهم، فدفعوها أثمانا لما يطلبون من المراكز وزينة الحياة الدنيا، فاتخذ منهم عملاء وخونة وجواسيس، وفرض عليهم مناهج وشروطا، فأطاعوه مقابل ما يضمن لهم من الهوى، وكانوا وبالا على أمتهم ودمارا.

أما المؤمنون الصادقون، فإنهم الرافضون الحقيقيون للدخول تحت سيطرة العدو؛ لأنهم يرون ذلك كفرا بالله، الذي لا يقبل منهم عبودية لسواه، ولا موالاة لغيره وغير رسوله والمؤمنين؛ ولأنهم يرون الدنيا كلها بما فيها من زينة وشهوات لا تعدل عند الله جناح بعوضة(٣)، فكيف

---

(٣) صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة=

يبيعون جنة عرضها السموات والأرض بجناح بعوضة أو أحقر منها؟ إذن فأنّى للعدو أن ينفذ إليهم أو يتخذ منهم أولياء وعملاء، وهم يحتقرونه وما يملك، ولا يرون عنده شيئا أثمن من جناح بعوضة؟.

ولعلنا بهذا نستطيع أن ندرك جيدا التفسير الصحيح لصنيع المستعمرين في بلاد الإسلام، التي ابتليت بهم، حيث اجتهدوا في صرف المسلمين عن الله عز وجل، وعن دينه القويم ونثروا بين أيديهم من شهوات الدنيا وفتحوا لهم أبوابها، وأوهموهم أنها سبب تقدمهم وانتصاراتهم، ودعموا في شبابهم كل نظرية أو فكرة تبعدهم عن ربهم وتثير فيهم غرائز الحيوان وتصرفهم عن كل فضيلة أو خلق كريم؛ يؤيد هذا الفهم ما جاء في بروتوكلات حكماء صهيون؛ حيث يظهر بوضوح أنهم اعتمدوا على رأس خططهم في تحطيم طاقات الشعوب نشر الشهوات والمفاسد، وصرف الناس عن الفضائل والأخلاق الكريمة(٤).

هذه هي خطة الكفار في بلادنا؛ خطة تقوم في أساسها على تشجيع التفسخ الخلقي وعبادة اللذة وإشاعة الفاحشة، ومطاردة المثل والقيم الإسلامية، والدعاة إليها؛ لأنهم يعلمون أن أصحاب الخلق والتقوى فيهم مكمن الخطر عليهم، وهم العقبة الكؤود أمام أطماعهم. لقد قدم الجنرال غورو عام ١٩١٨ لاحتلال لبنان، وكان معه جيش

= ما سَقَى منها كافراً شربة ماء » رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح ــ انظر: النووي ــ رياض الصالحين ص ٢٠٧ ــ المطبعة اليوسفية ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م.

(٤) انظر: بروتوكولات حكماء صهيون ص ٧٠، ٨٦، ٩٥ مطبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٥١ م.

لجب، وبصحبة هذا الجيش باخرة كبيرة مليئة بالبغايا فقيل له: وظيفة هذا الجيش المقاتل مفهومة، فما بال هذا الجيش الآخر؟ فأجابهم: بهذا الجيش ننتصر على أعدائنا قبل الجيش المقاتل(٥).

وفي الاتجاه نفسه يقول المبشر الصليبي ــ رئيس جماعات التبشير ــ صموئيل زويمر، في أحد مؤتمرات التبشير: (إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية؛ فإن هذا شرف لا يستحقونه، إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبعملكم هذا تكونون طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، لقد هيأتم جميع العقول في تلك الممالك لقبول السير في الطريق الذي سعيتم له، وهو إخراج المسلم من الإسلام؛ إننا نريد أن تعدوا جيلا مطابقا لما أراده له الاستعمار، جيلا لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، ويسعى للحصول على الشهوات بأي أسلوب وتصبح الشهوات هدفه في الحياة؛ إن تعلم فللحصول على الشهوات وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات ويجود بكل شيء في سبيل الشهوات، أيها المبشرون: إنكم إن فعلتم ذلك كانت مهمتكم تتم على أكمل الوجوه)(٦).

---

(٥) محمود شيت خطاب ــ الإسلام والنصر ص ١١٣ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ــ دار الفكر.

(٦) عبد الله التل ــ جذور البلاء ــ القسم الأول ص ٢٧٦ ــ دار الارشاد للطباعة

(٢) ذاك جانب من جوانب القوة في عقيدة الإيمان بالله عز وجل، وَنِعَمُ هذه العقيدة أجل من أن تحصى، وهناك جانب آخر لا يقل عما تقدم ذكره في أثره وفاعليته، وهو جانب الثقة، التي لا يكون نصر بدونها أبدا، إنه السلاح الذي يعوض وجوده عن قلة السلاح المادي ولا يعوض عن وجوده أي سلاح مادي؛ حيث يرى العسكريون أن قوة الروح المعنوية هي أساس الانتصار في المعارك، وأنه لا قيمة لأي جيش، مهما كان ضخما في عدده، ودقيقا في تنظيمه، وممتازا في تسليحه، مالم تكن معنوياته عالية، ويقولون: إن الجيش الايطالي كان في الحرب العالمية الثانية مجهزا بأحدث الأسلحة، وأشدها فتكا آنذاك، وكان تنظيمه في غاية الدقة، ولكن معنوياته كانت منحطة إلى درجة كبيرة، فأصبح عبئا ثقيلا على الألمان؛ حتى كان الحلفاء يطلقون على المواقع التي يحتلها الايطاليون تعبير الفراغ العسكري؛ لأنهم كانوا يستسلمون دون قتال، كلما حاق بهم خطر حقيقيا كان أو وهميا(٧).

وإذا كانت هذه مُسَلَّمة من المُسَلَّمات العسكرية، فالسؤال الذي يرد: ما ينابيع هذه الروح؟ وما مصادر قوتها؟ وما غذاؤها الذي ينميها ويحافظ عليها؟.

= والنشر ــ بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م، جلال العالم ــ قادة الغرب يقولون: ص ٥٢ ــ الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م، وانظر في التخطيط للسيطرة على العالم الإسلامي: محمود شاكر ــ العالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه، ومحمد محمود الصواف ــ المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام.

(٧) محمود شيت خطاب ــ الرسول القائد ص ٤٦٤ ــ نشر دار العلم ــ الطبعة الثالثة ــ مطابع دار العلم.

والقاعدة العامة، أن المصدر الذي يمد الروح بقوتها، والغذاء الذي يحافظ على استمرارية علوها هو: الثقة بقوة الحال، والثقة بالفوز في المآل:

فأما الثقة بقوة الحال، فهي ثمرة للثقة بقوة النصير، وأحقية الغايات.

وأما الثقة بربح المآل، فهي فرع عن تصور عظم المكافأة التي ينالها المقاتل، مهما كان المصير الذي سيؤول إليه، وعن قدرة المكافئ على الاحسان والعطاء الجزيل.

فإذا كانت هذه هي منابع القوة في الروح، ومصادر الامداد لها فإن الحق الذي لا مراء فيه أنه لا يتحصل لإنسان في الدنيا من هذه المنابع والمصادر مثلما يتحصل للمؤمن بالله العلي القدير، وبصفاته الجليلة، وأسمائه الحسنى وأفعاله الحكيمة: فأما الثقة بقوة الحال فإن للمقاتل المؤمن منها أوفر نصيب؛ لأنه يثق أنه يركن في معاركه إلى أعظم قوة، ويأوي إلى حمى ملك لا يضام، بيده أعناق الجبابرة، ومصائر الطغاة، خالق كل شيء، وواهب القوة لمن يشاء، ومسخر كل شيء لما يريد: إنه يثق بقوة الله العزيز الجبار، ويثق بأنها محيطة بكل قوة وكل جبروت، ويثق بوعد الله، حيث جعل نصره لناصريه، المجاهدين لإعلاء كلمته، وأن جنوده مسخرة لأوليائه، ولله جنود السموات والأرض: ملائكة ورياح وظروف وتسديد وتصويب وسكينة يقذفها في قلوب عباده، ورعب يقذفه في قلوب الأعداء. فهو يؤمن أنه ليس وحده في صراعه مع الكفار والأشرار، وإنما يمده أقوى الأقوياء، فهو لا يركن إلى كثرة عدد، ولا إلى وفرة قوة، وإن كان لا يهملها، ولكنه لا يتكل عليها، فلا يضعف عزيمته

كثرة عدوه أو مضاء أسلحته فهو عند قول ربه: « **الَّذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُم، فَزَادَهُم إيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل** » آل عمران / ١٧٣، وحاله دائما كما يقول الشاعر المؤمن:

ما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

لقد كانت هذه الثقة بالله مصدر طاقة عظيما في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم؛ فكانت باعثهم ودافعهم على الثبات في الجهاد، مهما كانت أعدادهم وعددهم قليلة، ومهما كانت أعداد عدوهم وعدده كثيرة:

ففي إحدى المعارك التي خاضوها مع الروم قال بعض المسلمين، وقد رأوا جمعا عظيما، أعده الروم ونصارى العرب لقتالهم: إنه قد حضركم جمع عظيم، فإن رأيتم أن تتأخروا، ويُكتب إلى أبي بكر، فيمدكم، فقال هشام بن العاص رضي الله عنه: إن كنتم تعلمون أنما النصر من عند العزيز الحكيم، فقاتلوا القوم، وإن كنتم تنتظرون نصرا من عند أبي بكر، ركبت راحلتي حتى ألحق به، فقالوا: ما ترك لكم هشام ابن العاص مقالا، فقاتلوا قتالا شديدا، وقتل من المسلمين بشر كثير وقُتل هشام بن العاص، وهزم الله الروم، فمر رجل بهشام وهو قتيل، فقال: رحمك الله، هذا الذي كنت تبغي[٨].

---

(٨) عبد الله بن المبارك ــ الجهاد ص ٩٤ ــ تحقيق نزيه حماد ــ طبعة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ــ بيروت.

وفي يوم مؤتة كان المسلمون ثلاثة آلاف رجل، ولما وصلوا إلى معان (بلدة في جنوب الأردن) بلغهم أن هرقل نزل في مؤاب في البلقاء في مئة ألف جندي من الروم، وانضم إليهم من نصارى العرب مئة ألف آخرون، فقال بعض المسلمين: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له، فقام عبد الله بن رواحة ــ رضي الله عنه ــ وخطب الناس فقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون، إنها الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة(٩).

إن هذه الثقة بالله ونصره، وهذه العقيدة بأن النصر من عند الله وحده، هي التي حمت أمتنا في الماضي من السقوط في أحضان الأمم الكافرة، الشرقية أو الغربية، فقد شرد المسلمون في أول أمرهم، وهم في مكة المكرمة، واضطهدوا، فلم يطلبوا العون من الفرس، ولا من الروم. وفي الأعوام الأولى بعد قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة، حيث كان المسلمون في ضيق شديد: بين الأحزاب الكافرة خارج المدينة، واليهود المنافقين في داخلها، والجميع يتآمر عليهم، ويمكر بهم، فلم يقبل قائدهم عليه الصلاة والسلام أن يستعين بكافر واحد، سواء أكان مشركا أم من أهل الكتاب، ولقد عرض عليه ــ قبيل أحد ــ بعض

---

(٩) ابن كثير ــ السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٤١ مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٤ م.

اليهود بعد أن جمعوا أنفسهم في كتيبة منظمة، فرفض الاستعانة بهم رفضا قاطعا(١٠). هذا في الوقت الذي كان أبو عامر الراهب يستعدي الروم على بني قومه، ويشيد له المنافقون مسجد الضرار، وهو يمنيهم بأنه سيقدم بأعوان من الروم يحتلون البلاد، وينتصرون على المسلمين(١١).

وإنما افترق هذان الصنفان من الناس بما سكن في القلوب من العقائد: فتميز جند الله بالثقة بربهم، والتوكل عليه، وطلب العون منه دون غيره، والاستغناء بما عنده سبحانه عن المخلوقات جميعها. وانحدر المنافقون بخلو قلوبهم من تلك العقائد، وعدم الثقة بربهم، وتوكلهم على غيره سبحانه.

إن تلك العقيدة القوية، وما تبعثه في القلب من الروح المعنوية العالية لهي التفسير الوحيد لتلك البطولات الخارقة والشجاعات الفائقة، التي امتلأ بها تاريخ أمتنا في حقبة من الزمان تميزت بربانية أهلها، وتشربهم عقائد الإسلام في قلوبهم؛ حيث كانوا يخرجون من بيوتهم ساعين إلى الموت سعيا، طالبين الشهادة في سبيل الله تعالى، فإذا حَمِيَ الوطيس باعوا نفوسهم لربهم، واحتقروا الموت وتحاملوا على جراحاتهم، وتخلصوا من آلامها باستشعار لذة الطاعة للرب والأمل برضوانه سبحانه؛ روى

---

(١٠) السرخسي ــ المبسوط ــ ج ١٠ ص ٢٣ طبع مطبعة السعادة ــ مصر الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤ هـ.

(١١) ابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٨٧، طبع دار إحياء الكتب العربية بمصر، الطبري ــ التفسير ج ١٤ ص ٤٦٩ ــ تحقيق محمود شاكر ــ نشر دار المعارف ــ القاهرة.

ابن إسحاق عن معاذ بن عمرو بن الجموح قال: سمعت القوم وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلَصُ إليه، فجعلته من شأني، فصمدت نحوه(١٢)، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطنّت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني (أي غلبني واشتد عليَّ) القتال عنه؛ فلقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني، وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت عليها حتى طرحتها(١٣)؛ فانظر ماذا فعلت قوة الروح في هذا الرجل، حتى تخلى عن ذراعه بتلك الطريقة التي ذكرها، ولم يمنعه الألم ولا نزف الدم عن مواصلة القتال؛ حيث غطت قوة روحه على كل ألم.

إن هذه الروح المعجزة هي التي جعلت بعض كتاب الغرب يندهشون من الانجازات العسكرية التي حققها المسلمون، والسرعة الفائقة التي تحققت بها تلك الانجازات؛ حتى قال بعضهم: (يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن أعرابا منقسمين إلى عشائر ليست عندهم العدد والعتاد اللازم يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مرارا في الأعداد والعتاد والتنظيم)(١٤).

---

(١٢) صمدت نحوه: قصدت إلى جهته.

(١٣) ابن هشام ــ سيرة النبي ج ٢ ص ٢٧٥، ٢٧٦ ــ مطابع شركة الاعلانات الشرقية ــ القاهرة سنة ١٣٨٢ هـ.

(١٤) كامل الدقس ــ آيات الجهاد ص ١٣٤ ــ طبع دار البيان ــ الكويت ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.

وللروح المعنوية العالية رافد عظيم آخر، ينبع من عقيدة الإيمان بالله؛ إنه رافد الثقة بالدعوة المحمولة، وأهدافها وغاياتها، وأحقيتها بالسيادة. وأصل هذه الثقة الإيمان بأن ما عند الله خير مما عند المخلوقات؛ لأنه هو الخالق الواحد الأحد العليم الخبير. وهذه العقيدة تجعل المجاهد المؤمن يثق بأحقية ما يقاتل من أجله ثقة لا تعدلها غيرها ولا تقاربها: إنه يؤمن بأن دعوته التي يجاهد من أجل إعلائها وتحكيمها في الأرض هي أصدق دعوة، وأحق دعوة بالعلو والظهور؛ لأنها دعوة الله أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين؛ فهو يؤمن بعدالة الأهداف التي يضحي من أجلها، وهذا الإيمان يجعل منه مقاتلا رهيبا(١٥)، لا يستكثر على دعوته مالا ولا نفسا ولا ولدا، بل يضحي بذلك كله في سعادة بالغة.

إن المجاهد المسلم يعتقد وهو يقاتل أعداءه أنه جندي لله رب العالمين، يحارب من أجل إعلاء كلمته في الأرض، ونشر دينه بين العباد، في الوقت الذي يؤمن فيه أن أعداءه يقاتلون في سبيل الشيطان، ولن ينتصر الشيطان على العزيز الجبار: « **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً** » النساء / ٧٦.

إن هذه العقيدة وهذه الثقة بالدعوة والغايات تملأ قلب المجاهد

---

(١٥) محمود شيت خطاب ــ إرادة القتال في الجهاد ص ٢٥ طبع سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ــ الطبعة الثانية / دار الفكر.

المسلم بالشعور بالعزة والاستعلاء(١٦)، وتحصنه ضد التنازل والمساومة والاستسلام: فهو يرى أن ما معه من الهدى، وما حَمَلَ من الدعوة، وما كُلِّفَ بتحقيقه من الغايات أكرم وأعز وشرف من كل مغريات الدنيا وزينتها، فهو لا يرى شيئا يصلح بديلا عنها أو عن بعضها.

بهذا الشعور قابل السلف المجاهد في سبيل الله طواغيت الأرض وبلّغوا رسالة الله إلى البشر، وطالبوهم بالكف عن ظلم العباد، ولم يبهروا بما شاهدوه عندهم من بهارج الدنيا، ولم يقيموا لذلك وزنا في قلوبهم، فكان هذا الاستعلاء وكانت هذه العزة أول ما يحطمون به معنويات أعدائهم، ويهزمون أرواحهم؛ ليكون ذلك تمهيدا للانقضاض عليهم في ساحة الوغى، وفيما يلي أثبت للقارئ بعض المقابلات التي جرت بين مفاوضين من المجاهدين وبين يزدجرد ملك الفرس وقائده رستم؛ حيث يظهر من خلالها النموذج الرائع للمعنويات العالية، يمكن القياس عليه، واستنتاج بعض ملامح الشخصية الجهادية التي يصنعها الإسلام:

المقابلة الأولى ــ بين يزدجرد ملك الفرس، وجماعة من المجاهدين منهم النعمان بن مقرن:

قال يزدجرد: ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا؟ أمِنْ أجْلِ أنَّا أجْمَمْناكُم وتَشَاغَلْنَا عنكُم اجتَرأتُم علينا؟.

---

(١٦) انظر مزيدا من التفصيل والتوضيح لهذا الأثر الإيماني عند سيد قطب في معالم في الطريق ص ١٦٣ــ١٧٢ طبع ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.

قال النعمان لأصحابه : ان شئتم أجبت عنكم ، ومن شاء منكم آثرته .
قالوا : بل تكلم ، وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا .

فتكلم النعمان فقال : إن الله رَحِمَنا فأرسل إلينا رسولا يدلُّنا على الخير ويأمرنا به ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين : فرقة تقاربه ، وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه في دين الله إلا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أُمِرَ أن ينبذ إلى من خالَفَهُ من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعا على وجهين : مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم ، فندعوهم إلى الانصاف : فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حَسَّن الحَسَنَ ، وقَبَّحَ القبيح ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن أتيتمونا بالجزاء قَبِلنَا ومنعناكم (أي حميناكم) ، وإلا قاتلناكم(١٧) .

المقابلة الثانية ــ بين رستم قائد الفرس والمجاهد المسلم ربعي بن عامر رضي الله عنه : لمَّا نزل رستم قائد الفرس بالقادسة أرسل إلى سعد ابن أبي وقاص أن ابعث لنا رجلا نكلمه ، فخرج إليه في اليوم الأول رِبعي

---

(١٧) أبو جعفر الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٤٩٨ وما بعدها ــ مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ م ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

ابن عامر، وسار ليدخل على رستم في عسكره، فاحتبسه الذين على مدخل المعسكر من جند رستم، وأُرسل إلى رستم بمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ أنُباهي أم نتهاون؟ فأجمع ملؤهم على التهاون (أي التساهل معه)، فأظهروا الزبرج، وبسطوا البسط والنمارق، ولم يتركوا شيئا، ووُضع لرستم سرير الذهب، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب، وأقبل ربعي يسير على فرس له قصيرة طويلة الشعر، ومعه سيف مجلو، وغمده لفافة ثوب خلق، ومعه رمحه وترسه وقوسه ونبله، فلما غشي القائد، وانتهى إليه وإلى أدنى البسط، قيل له: انزل، فحملها على البساط، فلما استوت عليه نزل عنها، وربطها بوسادتين، فشقهما، ثم ادخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه، وإنما أروه التهاون (كما اتفقوا)، وعرف ما أرادوا فأراد استحراجهم (ايقاعهم في الحرج)، وعليه درع، ويلمقه عباءة بعيره قد جابها (قَوَّر جَيْبَها) وتدرعها، وشدها على وسطه بحبل من الليف، وقد شد رأسه بمعجرته، وكان أكثر العرب شعرا، ولرأسه أربع ضفائر، قد قمن قياما كأنهن قرون الوعلة، فقالوا: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم، فقال: ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد، فأقبل يتوكأ على رمحه، ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطا إلا أفسده، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ (أي الجلوس على الأرض) قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، فكلمه رستم فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من

عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه؛ لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نُفضي إلى ما وعدنا الله، قال رستم: وماذا وعدكم الله؟ قال ربعي: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى .... ثم طلب رستم مهلة يستشير فيها أهل الرأي من قومه، فأجَّله ثلاثة أيام، وقال له: اختر واحدة من ثلاث بعد الأجل: اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزية، فنقبل منك ونكف عنك، وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي، وعلى جميع من ترى: قال: أسيدُهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم.

فخلص رستم برؤساء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ هل رأيتم كلاما قط أوضح وأعز من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب! أما ترى إلى ثيابه؟ فقال رستم: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إنهم يستخفون باللباس والمأكل ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللباس ولا يرون ما ترون.

ثم أقبلوا على ربعي يتناولون سلاحه، ويزهدونه فيه، فقال لهم: هل لكم في أن تروني فأريكم؟ فأخرج سيفه من خرقه كأنه شعلة نار، فقال القوم: أغمده فغمده، ثم رمى ترسا، ورموا حجفته (ترسه)،

فخرق ترسهم، وسلمت حجفته، فقال: يا أهل فارس، إنكم عظّمتم اللباس والشراب، وإنا صغّرناهنَّ، ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل .....(١٨).

المطلب الثاني

أثر الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم

للإيمان بالرسول ﷺ أبلغ الأثر في تكوين الشخصية الجهادية للمسلم؛ لأن هذا الإيمان لا يصح ولا يكتمل حتى يكون الرسول أحب إلى المسلم من نفسه وماله وولده والناس أجمعين(١٩)، فإذا امتلأ القلب بحب هذه الشخصية الكريمة كان ذلك دافعا قويا للاقتداء بها؛ فليس أبعث على التأسي بإنسان من حبه وتقديره واحترامه، فإذا اندفع المسلم للتأسي بأكرم الخلق، وجد أمامه أكمل الناس وأجمعهم للخصال الكريمة التي منها خصال الجهاد وأخلاقه، حيث يجد نفسه أمام أشجع الناس وأثبتهم وأصبرهم وأكثرهم إيمانا بالله وثقة بنصره عز وجل وتضحيته في سبيله.

---

(١٨) الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٥١٩ وما بعدها.

(١٩) وفي ذلك أخبار صحيحة عن رسول الله ﷺ، منها ما رواه أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين » أخرجه البخاري ومسلم ــ انظر ابن الجوزي ــ الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٣٨٢ الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م ــ مطبعة السعادة بمصر.

والحق أن أفقر الأمم تلك التي لا تجد في تاريخها من تقتدي به وتقترب من أخلاقه، وأغناها من شرفها الله عز وجل بأجمع الخلق كلهم لخصال الخير والقوة والشجاعة والبطولة. وليس من أمة في الدنيا خصت بمثل ما خصت به أمة الإسلام من النعمة المتمثلة في شخص رسول الله ﷺ؛ حيث رباه ربه، فجمع فيه جميع الأخلاق العظيمة التي دعا إليها عباده في كتابه الكريم. وأية نعمة أعظم من أن يجد المسلم أمامه صورة عملية لكل فضيلة وكل خلق كريم؟.

وكيف لا يكون مجاهدا من عرف أن أحب الخلق إليه كان في الذروة العليا من الجهاد، وأنه استولى على أنواعه كلها، وجاهد في الله حق جهاده، بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان، وأن ساعاته كلها كانت موقوفة على الجهاد؟ وكيف يتأخر عن الصف من علم أن من اتخذه قدوة وأسوة كان دائما أقرب المقاتلين إلى العدو، وأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يلوذون به كلما حمي الوطيس، وأن أشجعهم من كان يحاذيه لحظة من لحظات القتال؟.

ولقد خرَّجت المدرسة الربانية بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي ظلال القرآن الكريم جيلا من الصحابة والتابعين ـــ رضوان الله عليهم ـــ كان لهم القدح المعلّى من الأخلاق الجهادية، بعد قائدهم عليه الصلاة والسلام، كل واحد منهم له من البطولات والأمجاد ما يشكل سفرا ضخما ومعينا لا ينضب من الزاد الجهادي للأجيال التي جاءت بعدهم، بشرط أن تمد يدها إليه، وتغترف منه.

وإذا كانت أمة من الأمم لتفتخر أن يكون لها عدد قليل من الأبطال والبطولات أمثال هؤلاء، تغذي أجيالها بذكراهم، وتهتدي بسيرتهم، فما بال أمة أكرمها ربها بأشرف خلقه، وأشجعهم عليه الصلاة والسلام، وحشد عظيم كريم من الأبطال، تغفل عن أبطالها، وتلوي أعناق أبنائها بالمناهج ووسائل الاعلام المختلفة، وتصدهم عن رؤية أمجادها، في الوقت الذي تعرض أنظارهم لشرار الخلق، وأبطال الرذيلة، وتملأ أسماعهم بسير الشخصيات الكافرة؛ وكأن تاريخنا مقفر من البطولات والأمجاد، حتى كانت النتيجة إدخال هذه الأجيال في مراكب من النقص لا تجد لها مراسي إلا في القيعان، ولا قرارا إلا في المؤخرة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المطلب الثالث
أثر الإيمان باليوم الآخر

إذا كان الإنسان المسلم، بالشهادتين ينطلق ويندفع إلى الجهاد، ومكافحة الشر وأهله، فإن عقيدته وتصوره عن الآخرة تشده إلى الجهاد شدا، وتملأ قلبه بالشوق إلى الشهادة، لأن هذه العقيدة تعرِّفه على حقيقة هذه الدنيا، وقيمة متاعها، وأنها ليست سوى مرحلة من مراحل وجوده، وممر ووسيلة إلى مرحلة نهائية، فيها القيم الخالدة، والتجارة الرابحة، والفوز الحقيقي.

ومن أراد أن يعرف أثر هذه العقيدة في صياغة الشخصية المضحية، من الناحية النظرية، فليقارن بين شخصين: أحدهما يحمل تلك العقيدة

بين جوانحه وآخر يعتقد أنه ينتهي بالموت، وأن الدنيا هي آخر المطاف في رحلة الوجود الإنساني، وأنها الفرصة الوحيدة للاستمتاع والتلذذ، فأيهما يلبي النداء إلى الجهاد؟ وأيهما يضحي بنفسه وأمواله؟ أليس هو الذي يعتقد أن الثمن أجزل وأعلى؟ أليس هو الذي يطلب الآخرة؟ ثم أيهما يتقاعس ويقعد عن القتال، وينتحل الأعذار للتخلف عن الجهاد، ويضن بنفسه وماله؟ أليس هو الذي لا يرى عيشا بعد عيش الحياة الدنيا، ولا متعة بعد متاعها، ولا زينة بعد زينتها؟.

ولقد بين الحق جل وعلا هذه الحقيقة، فقرر ـــ ولا معقب على تقريره ـــ أن الجبن والكفر بالآخرة صنوان، وأن الشجاعة والاقدام والايمان باليوم والآخر متلازمان، فقال عز من قائل: « **لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُون بالله واليَوْمِ الآخر أن يُجاهِدُوا بِأَمْوَالِهِموَأَنْفُسِهِم، والله عَلِيمٌ بالمُتَّقِين. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالله واليَوْمِ الآخِرِ، وارْتَابَت قُلوبُهُم، فَهُمْ فِي رَيْبِهِم يَتَرَدَّدُون** ».

سورة التوبة ـــ الآيتان ٤٤، ٤٥.

ذلك من الناحية النظرية، وأما من الناحية الواقعية، فإليك هذا المثل الذي يبين أثر هذه العقيدة في قلوب المؤمنين بها:

وردت أخبار صحيحة كثيرة في فضل المشي والغبار في سبيل الله تعالى، وقد دلت في مجملها على أن الغبار الذي يصل إلى جوف المجاهد في سبيل الله يجعله الله سببا للخلاص من جهنم ودخانها، من ذلك ما

ورد عن عبد الرحمن بن جبر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار »(٢٠). وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما من رجل يغبَرُّ وجهه في سبيل الله إلا آمنه الله دخان النار يوم القيامة، وما من رجل تغبَرُّ قدماه في سبيل الله إلا آمن الله قدميه النار يوم القيامة »(٢١).

هذه الأخبار وأمثالها، إذا سمعها المسلم أسكنها قلبه، وصارت عقائد عنده، عن نهاية سيصير إليها، وتفاعلت مع أحاسيسه، وانتجت صبرا ومثابرة وشجاعة وإصرارا على مقارعة الأعداء، وقد يوضح شيئا من ذلك هذه القصة:

يُروى عن صلاح الدين الأيوبي أنه كان يحمل معه صناديق مقفلة في أيام جهاده، وكان يحرص عليها أعظم الحرص، ويرعاها أشد الرعاية؛ حتى ظن بعض الناس أن هذه الصناديق تخفي في بطونها جواهر ويواقيت وأموالا. وبعد وفاته فُتحت تلك الصناديق فوجد الذين فتحوها أنها تحوي وصية صلاح الدين وكفنه وكمية من التراب. وفتحت الوصية فكان مما جاء فيها: (أُكَفَّن بهذا الكفن الذي تعطر بماء زمزم، وزار الكعبة المشرفة وقبر النبي ﷺ. وهذا التراب هو من مخلفات أيام

---

(٢٠) رواه البخاري ــ انظر فتح الباري ج ٦ ص ٢٣ ــ المطبعة البهية المصرية ١٣٤٨ هـ.

(٢١) رواه الطبراني والبيهقي ــ انظر الحافظ المنذري ــ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٧٢ ــ الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

الجهاد، يصنع منها طابوق يوضع تحت رأسي في قبري). ونفّذ القوم وصيته، فصنعوا من ذلك التراب الذي جمعه صلاح الدين في معاركه مع الصليبيين اثنتي عشرة طابوقة. ووضعوها تحت رأسه في قبره الشريف وما زالت إلى اليوم(٢٢).

إن صلاح الدين الأيوبي ـــ رحمه الله ـــ قد وصل إلى علمه تلك الأخبار عن فضيلة الجهاد والتغبر في سبيل الله؛ حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام قائده وأسوته، فأيقن بصدقه، وأن نجاته من العذاب مرهونة بالجهاد في سبيل الله، فكان، رحمه الله، يحرص بعد عودته من كل معركة يخوضها جهادا في سبيل الله على جمع الغبار والتراب المتكاثف فوق وجهه وثيابه وقدميه، ويحتفظ به في صندوق من صناديقه السرية، حتى جمع هذه الكمية، وأوصى بجعلها تحت رأسه في قبره، لتشهد له أمام الله؛ حيث لا ينفع مال ولا بنون، ولا يرفع جاه ولا سلطان، ولا جواهر ولا يواقيت، فكان منه ما كان.

فهل كان صلاح الدين يصل إلى هذه الدرجة العليا في الجهاد، لو لم يؤمن بذلك اليوم، الذي لا يقبل فيه إلا الجهاد والعمل الصالح والقلب الخالص لله؟.

والله لو كان كذلك، لما سمعنا باسمه بين المجاهدين، ولما كان له شأن لا عند الله ولا عند الناس، ولكن ربه أكرمه بالإسلام والإيمان.

---

(٢٢) نقل ذلك محمود شيت خطاب في كتابه (الإسلام والنصر) ص ١٢٤ ـــ الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ دار الفكر.

ومن جهة أخرى فإن الإسلام يعرف الناس بالقيم ويرتبها لهم ترتيبا يدفعهم إلى الجهاد دفعا، فيبين لهم أن ما عند الله خير وأبقى، وأنّما أعد الله للمجاهدين في الحياة الأخرى، لا يساويه ولا يقاس به أي شيء من متاع هذه الحياة الدنيا. ولا شك أن من يعتقد بأن ما هو مقدم عليه بعد الموت خير من الدنيا وما فيها، فلن يتوانى عن الاقدام، ولن يضن بنفسه وماله. وأن من يفضل متاع الدنيا الزائل، على نعيم الآخرة المقيم؛ لاعتقاده أن ما في الدنيا هو القيم العليا التي يتمسك بها، ويحافظ عليها، يؤثر القعود على الجهاد.

ولذلك شنّع الله على المتثاقلين إلى الأرض، وبين سوء اختيارهم لمتاع الدنيا، وتفضيلهم إياه على الخلود في النعيم، فقال سبحانه: « **يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا مَالَكُم إذَا قِيلَ لَكُم: انْفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُم إلى الأَرْضِ؟ أَرَضِيتُم بِالحَياةِ الدُّنيَا مِنَ الآخرة؟ فَمَا مَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا فِي الآخرة إلا قَليل** » التوبة ــ آية ٣٨.

وأما الشهداء فقد أثبت الإسلام في قلوب المؤمنين أن مصيرهم خير مصير، وأن مركزهم عند الله عظيم وكريم، وأن لهم من الامتيازات والاختصاصات عند رب العباد ما ليس لغيرهم، قال تعالى: « **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً، بَلْ أَحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُون، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُم الله مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بالَّذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِنْ خَلْفِهِم أَلّا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُم يَحْزَنُون** »

آل عمران ــ الآيتان ١٦٩، ١٧٠.

ولهذه العقيدة أثرها العظيم في حث المؤمنين على التسابق إلى الجهاد والتنافس فيه، وفي حثهم على دفع أحبائهم من أولادهم وإخوانهم إلى هذا الفوز العظيم. كما أن لغياب هذه العقيدة عن القلوب أثرا بينا في تثبيط همم الناس عن القتال وتحريضهم لأحبائهم على الابتعاد عنه.

وبهذا نستطيع تفسير ما نقرأه في سيرة الصحابة رضوان الله عليهم من فرحهم وسعادتهم بمقتل أحبائهم في سبيل الله:

ورد عن أم حارثة سراقة أنها أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة ــ وكان قبيل يوم بدر أصابه سهم غرب (سهم طائش) ــ فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء؟ قال: يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى(٢٣). فانظر إلى هذه الصحابية الجليلة كيف استقر في قلبها أن الخسران الذي يستحق البكاء هو فوات الجنة، بعدم إحراز الشهادة.

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: لمَّا طعن حرام بن ملحان، يوم (بئر معونة) قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، وقال: فزت ورب الكعبة. وروي أن الذي قتله جبار بن سلمى الكلابي. قيل: ولما طعنه بالرمح قال: فزت ورب الكعبة. ثم سأل جبار بعد ذلك: ما معنى قوله (فزت)؟ قالوا: يعني بالجنة، فقال: صدق

---

(٢٣) أخرجه البخاري ــ فتح الباري ج ٦ ص ٢٠، ٢١ وانظر الجهاد لابن المبارك ص ٧٢.

والله، ثم أسلم جبار لما رأى من صدق هذا المقاتل المسلم(٢٤).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني اعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله أن أصنع ما صنع. قال أنس بن مالك: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، فقال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه: « **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا** »(٢٥) الأحزاب ـــ آية ٢٣.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون فقال الرسول

---

(٢٤) انظر فتح الباري ج ٧ ص ٣١١، وانظر: محمد يوسف الكاند هلوي ـــ حياة الصحابة ج ١ ص ٥٤٥ ـــ دار النصر للطباعة ـــ القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.

(٢٥) انظر فتح الباري ج ٧ ص ٢٨٥، والكاند هلوي ـــ حياة الصحابة ج ١ ص ٥١٩، والمنذري ـــ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣١٢.

ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال عمير بن الحمام: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها. قال: فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل(٢٦).

تلك النفوس المؤمنة عرفت القيمة الحقيقية للحياة الدنيا، فلم تقم لها من الوزن أكثر مما أعطاها خالقها سبحانه، وأيقنت أنها فرصة للعمل والجهاد لا تتكرر، وليست فرصة للتلذذ والاستمتاع؛ فكانت في شجاعتها وتضحيتها مضرب الأمثال، وكانت نماذج لن تتكرر في التاريخ إلا بالأسلوب نفسه الذي خرجت فيه إلى الوجود أول مرة.

وأما المتثاقلون إلى الأرض، الذين يفضلون متاع الدنيا على الخلود في النعيم، فقد عاتبهم الله أشد العتاب، وعرَّفهم أن حقيقة صنيعهم ليس إلا تفضيل القليل على الكثير، والفاني على الخالد، فقال سبحانه وتعالى: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**

---

(٢٦) علي بن برهان الدين الحلبي ــ السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤١٢ ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ــ الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.
وخبر عمير اختاره النووي في كتابه رياض الصالحين ــ انظر محمد بن علان الصديقي ــ دليل الفاتحين ج ٤ ص ١١٨، ١١٩ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ مصر ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م.

اثَّاقَلْتُم إلى الأَرْضِ ، أَرَضِيتُم بالحَيَاةِ الدُّنيَا مِنَ الآخرَة ، فَمَا مَتَاعُ الحَيَاة الدُّنيَا فِي الآخِرَة إلَّا قَلِيلٌ » التوبة ـــ الآية ٣٨ .

والحق أن للأرض جاذبية ، وللطين ثقلًا ، ولمتاع الدنيا سلطانا على النفوس ، ومهما قيل عن الدوافع الدنيوية ، من حب للأوطان وطلب للذكر والشهرة فإنها لا ترقى أبدا على تلك الجاذبية وذلك الثقل والسلطان ، ولا يقوى عليها إلا جاذبية الجنة والشوق إلى نعيمها ، وطلب الخلاص من النار وجحيمها .

المطلب الرابع
أثر الإيمان بالقدر

أما عقيدة الإيمان بالقدر فإنها تتكفل بتحطيم أعتى الحواجز النفسية التي تحول دون الانطلاق نحو الجهاد ، وتثبط الهمم عن مواصلة البذل والتضحية في سبيل الله عز وجل ، وهي أمراض نفسية ، لا تغزو قلب إنسان ، ولا تنتشر في أمة من الأمم إلا وأفقدتها جميع مؤهلاتها الجهادية أو معظمها ، وفي مقدمتها أربعة أمراض ليس لها علاج ناجع سوى هذه العقيدة الربانية المباركة ، وهذه الأمراض هي : الخوف من الموت ، والخوف على الرزق ، واليأس ، والغرور .

فبالإيمان بقدر الله عز وجل في الآجال والأعمار وأسباب انتهائها يتحرر المؤمن من الخوف من الموت ، والخوف على الحياة ؛ حيث آمن أن

الله عز وجل هو الذي يحيي ويميت، وأن أسباب الموت والحياة بيده سبحانه، وأن لكل مخلوق لحظة محددة في علم الله عز وجل يخرج فيها من هذه الدنيا، مهما اتخذ لنفسه من وسائل الحماية والوقاية؛ حيث سمع قول ربه العليم: « **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُم الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** » النساء / الآية ٧٨، وقوله تعالى: « **قُلْ: لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُم لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِم الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِم** » آل عمران / الآية ١٥٤، وقوله تعالى: « **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لا يَسْتَأْخِرُون سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُون** » الأعراف / الآية ٣٤، فعرف بذلك حماقة الذين يفرون من قدر الله وهو ملا قيهم، وخسارة الذين يبخلون بأرواحهم، وهي ودائع مستردة مقابل جنة عرضها السموات والأرض، عرفوا ذلك فقال قائلهم:

أيّ يومـيَّ من المـوت أفـر
يوم لا قُدِّرَ أو يوم قُدِرْ
يومَ لا قُدِّرَ لا أرهبُـه
ومن المقـدور لا ينجـو الحَـذِرْ

أما الذين يحسبون أن الأمر بأيديهم، وبما يتخذونه من وسائل الوقاية والاحتياط، فهم أجبن الناس عن مقابلة الأعداء؛ حيث يظنون أن في القعود مهربا من الهلاك، قال عز وجل: « **لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا، وَقَالُوا لاخوَانِهِم إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزّىً لَوْ كَانُوا عِنْدَنا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، لِيَجْعَلَ اللهُ ذلك حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِم،**

والله يُحْيِي ويُمِيتُ، والله بِمَا تَعْمَلُون بَصِير »
آل عمران / الآية ١٥٦.

وأما الخوف على الرزق، فإنه لا يجد إلى قلب يؤمن بقدر الله سبيلا؛ لأن المؤمن يعلم أن الرزق بيد الله، وهو مقدر لا يزيده جبن ولا احجام، ولا يمنعه شجاعة ولا اقدام؛ حيث آمن بما قال له ربه: **« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلى الله رِزْقُهَا »** هود / الآية ١٥٦، وبما أقسم عليه بنفسه سبحانه: **« وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُم وَمَا تُوعَدُون، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ والأَرْض إِنَّه لَحَقٌّ مِثْلَمَا أَنَّكُم تَنْطِقُون »** الذاريات / الآيتان ٢٢،٢٣.

وقد كان الرجل المؤمن في عهد رسول الله يذهب إلى الميدان، فيعترض سبيله المثبطون، ويخوّفونه على أولاده ورزق عياله، فيقول: علينا أن نعطيه تعالى كما أمرنا، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا. وكان المخذلون يذهبون إلى المرأة المؤمنة، فيثيرون مخاوفها على رزقها ورزق عيالها إذا ذهب زوجها إلى الجهاد، فتجيبهم بثقة واطمئنان: زوجي عرفته أكّالا ولم أعرفه رزّاقا، فإن ذهب الأكال فقد بقي الرزّاق.

وأما اليأس فإنه لا يطرق أبواب القلوب التي آمنت بقدر الله عز وجل، فإن طرقها عاد خائبا لا ينال منها شيئا؛ لأنها قلوب أيقنت أن الأمر بيد خالقها، وإذا كان الأمر بيد المنان الكريم الرحمن الرحيم فهيهات أن يوصد في وجه أحبائه أبواب الأمل، وتنزه سبحانه أن يمعن

في إيذائهم ومنع الخير عنهم، فإن كان منه ابتلاء لهم، فإنما ذلك ليستخرج ما عندهم من الصبر والتوكل عليه سبحانه، فإن نجحوا في الامتحان كافأهم عز وجل مكافأة تليق بكرمه وجوده.

وإذا كانت هذه العقيدة توصد أبواب القلوب أمام اليأس والقنوط، فإنها تطهرها أيضا من البطر والغرور؛ لأنها أيقنت أن ما يصيبها من خير فمن خالقها، فلا تركن إلى قوتها الذاتية، ولكنها تجمع معها التوكل على الله عز وجل، وتسخرها في طاعته سبحانه. والحقيقة أن الغرور هو المدخل الأول لليأس؛ لأن من يعتز بقوته الذاتية ينهار عند أول فشل؛ حيث تنهار ثقته بما يعتبره نصيره الأوحد.

وأما المؤمنون فإنهم يوظفون قوتهم الذاتية في طاعة الرب جل وعلا ويرون أنهم ينتصرون بمعونته، فإن فشلوا مرة، أو أصيبوا، فذاك عندهم مقدمة لمكافأة كبيرة، هي النصر في الدنيا، والثواب في الآخرة، فأرواحهم عالية في السراء والضراء على السواء، وهذا ما أخبر به من لا ينطق عن الهوى، عليه الصلاة والسلام، حيث قال: « عجبا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرا له »(٢٧). حقا إنها لنعمة لا ينالها إلا المؤمن بالله وقدره، وأما غيره فنصيبه اليأس والقنوط في الضراء، وكفر النعمة والبطر والغرور في السرَّاء.

---

(٢٧) رواه مسلم ــ رياض الصالحين ــ الحديث رقم ٢٧ ــ انظر: نزهة المتقين ج ١ ص ٥٩ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ــ بيروت.

فقال عز وجل: « مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُم إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم، واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »[٢٨] الحديد الآيتان ٢٢،٢٣.

---

(٢٨) يقول سيد قطب في ظلال الآيتين من سورة الحديد، المشار إليهما في متن البحث: (وقيمة هذه الحقيقة ــ أي حقيقة كون كل مصيبة مكتوبة عند الله عز وجل قبل وقوعها ــ التي لا يتصور العقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى، قيمتها في النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها، فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعا وتذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الفرح الذي تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء .... فاتساع أفق النظر والتعامل مع الوجود الكبير وتصور الأزل والأبد ورؤية الأحداث في مواضعها المقدرة في علم الله، الثابتة في تصميم هذا الكون، كل أولئك يجعل النفس أفسح وأكبر وأكثر ثباتا ورزانة في مواجهة الأحداث العابرة حين تتكشف للوجود الإنساني وهي مارة به في حركة الوجود الكوني ...) ثم يقول: (ووجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والفخر، ثم بين هذا وذلك وبين البخل والأمر بالبخل، هو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله، لا يختال ولا يفخر بما يعطاه، ولا يبخل ولا يأمر بالبخل في عطاء، فأما الذي لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به، ثم يبخل كذلك ببذل شيء منه، ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه!) في ظلال القرآن ــ المجلد السابع ص ٧٣٧،٧٣٨ الطبعة الخامسة ــ بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م.

المطلب الخامس

أثر بعض العقائد والتصورات الإسلامية الأخرى

ليس الأمر مقتصرا على ما تقدم ذكره من العقائد الإسلامية في التأثير على شخصية الانسان وتوجيهها توجيها جهاديا، بل إننا نستطيع أن نتبين نوعا من هذا التأثير في كل عقيدة أتى بها دين الإسلام، وكل تصور زرعه في عقول أتباعه وقلوبهم، من ذلك مثلا:

(١) الإيمان بالرسل الكرام، الذين أرسلهم الله قبل محمد عليه الصلاة والسلام، وكذلك الإيمان بما ذكر الله عز وجل ورسوله الكريم ﷺ من أخبار الصالحين المصلحين، وأخبار جهادهم وثباتهم وصبرهم أمام الطواغيت والمجرمين، كل ذلك يعد من مصادر التربية الجهادية:

فدروس الثبات على الدعوة وعدم اليأس، والصبر على الأذى، والتضحية في سبيلها يجدها المؤمن الذي يتلو القرآن الكريم في سيرة المرسلين كلهم، أمثال نوح وإبراهيم وعيسى وموسى ويوسف وغيرهم، وكذلك في سيرة بعض الصالحين كالذين ذكرهم الله عز وجل في سورة البروج(٢٩)، وفصّل خبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام(٣٠).

---

(٢٩) تجد كثيرا من المعاني الجهادية ـــ وبخاصة معنى الثبات على المبدأ في ظلال سورة البروج من تفسير سيد قطب (في ظلال القرآن).

(٣٠) قصة أصحاب الأخدود رواها مسلم في كتاب الزهد والرقائق (باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام)، وقد ضمنها النووي كتابه (رياض الصالحين) ـــ الحديث رقم ٣٠ ـــ انظر نزهة المتقين لمجموعة من المؤلفين ج ١ ص ٦٢ـــ٦٥.

كذلك دروس العزة والشجاعة والاقدام والتحدي يجدها المؤمن في رسل الله داود وسليمان وموسى وإبراهيم ونوح وغيرهم.

ومن خلال سيرة الرسل يتعلم المؤمن الحكمة في دعوة الناس إلى الله: كيف يبدأ معهم، وكيف يسير، وكيف ينتهي، وكيف يرد عليهم، وغير ذلك من وجوه الحكمة في تبليغ رسالات الله عز وجل.

ومن إيمان المؤمن برسل الله يمتلئ فؤاده بالثقة التي سبق ذكر بعض منابعها من عقيدة الإسلام، وهذا منبع آخر لها يكمن في إيمانه بأن نهاية المعركة بين الحق المتمثل في رسالات السماء ورسل الله عز وجل، وبين الباطل المتمثل في الظلمة والطواغيت والشياطين من الجن والانس، والمناهج والخطط والأحكام التي يضعونها، ستكون لصالح الحق وأهله مهما كان للباطل من جولات.

(٢) الإيمان بالملائكة الكرام، وبوظائفهم التي أخبر عنها القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام، وبخاصة تلك الوظائف التي لها علاقة بحياة الإنسان وأعماله، كل ذلك له أثر عظيم في حياة الإنسان المؤمن؛ ذلك أن الصبر ومواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى، وعدم اليأس والشعور بالانس والطمأنينة، هذه المعاني وغيرها من المعاني الجهادية من لوازم الإيمان بالملائكة، وما أخبر الله من أفعالها وأحوالها؛ فعندما يضل الركب عن الطريق، وتسود الجاهلية الجهلاء، ويصبح المؤمن غريبا في وطنه وبين أهله وقومه، ويجد منهم الاستهزاء والصدود، والتخذيل والتثبيط عن طاعة الله عز وجل، في هذه الغربة يجد المؤمن

أنيسا ورفيقا يصحبه ويرافقه ويواسيه، ويصبره ويشجعه على مواصلة السير على درب الهدى؛ فهذه جنود الله معه، تعبد الله كما يعبد، وتتجه إلى خالق السموات والأرض كما يتجه، وتبارك خطواته وتشد من أزره، وتذكره بالخير عند ربه؛ فهو إذن ليس وحده في الطريق إلى الله ولكنه يسير مع الركب العظيم، ومع الأكثرية من مخلوقات الله عز وجل: مع الملائكة الكرام، ومع الأنبياء عليهم السلام، ومع السموات والأرض؛ فهو الأكثر رفيقا، وهو الأقوى سندا، فتجعله هذا المشاعر الصادقة صابرا مطمئنا، لا يزيده صدود الناس إلا ثباتا وجهادا(٣١).

(٣) ومن جهة أخرى فإن الإسلام صحح فكرة الناس عن ألم القتل الذي يلاقيه الشهيد، وأثبت في قلوب المؤمنين أنه مخفف عليه من دون الموتى؛ الذين يلاقون من معاناة الموت والنزع ما تقشعر منه الأبدان. وأما الشهداء فقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام أنهم لا يلاقون من ألم القتل إلا مثل ألم القرص، قال ﷺ: « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة »(٣٢).

ولهذه العقيدة أثر واضح في دفع أهلها إلى القتال، واستسهال الموت

---

(٣١) انظر: محمد نعيم ياسين ــ الإيمان (أركانه وحقيقته ونواقضه) ص ٣٦،٣٧ الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ــ عمان.

(٣٢) أخرجه الترمذي وقال عنه: حسن صحيح غريب ــ انظر صحيح الترمذي بشرح ابن عربي المالكي المسمَّى (عارضة الأحوذي) ج ٧ ص ١٦٤ ــ دار العلم للجميع ــ بيروت.

في سبيل الله ؛ فإنه إذا لم يكن من الموت بد ، وكانت الشهادة هي أكرم أشكاله وأيسرها على النفس ، فقد خسر من اختار غيرها .

(٤) ومن العقائد المؤثرة في تكوين الشخصية الجهادية للمسلم ما يسكبه الإسلام في عقله وقلبه من أن الخير كله فيما يختار له ربه ، وأن الأنظار إذا استقلت عن نظر الله عز وجل ورعايته قصيرة لا تدري أين المصلحة الحقيقية ، وأن أمورا كثيرة تكرهها النفس ، ويجعل الله فيها خيرا كثيرا ، وأن أمورا أخرى تشتهيها ، ويجعل الله فيها البلاء والشقاء ، وأن الجهاد وإن خيل للناس أن فيه ألما ؛ لما يلاقيه أهله من ألم الفراق ، فإن الله سبحانه يقرر أن فيه خيرا كثيرا ، فقال عز وجل : « **كُتِبَ عَلَيْكُم القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُم ، وَعَسَى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم ، وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُم ، واللهُ يَعْلَمُ وَأنتُم لا تَعْلَمُونَ** » البقرة ـــ آية ٢١٦ .

فإذا رسخت هذه العقيدة في النفوس سلّمت أمرها لله تعالى ، وأطاعت إرادته ، واستجابت له إذا دعاها للجهاد .

وفي آية أخرى بيّن سبحانه وتعالى للمؤمنين أن التخلف عن الجهاد ، والتمسك بزينة الدنيا إلقاء بالأيدي إلى التهلكة ، فنهاهم عز وجل عن ذلك ، فقال : « **وَلا تُلْقُوا بِأيْدِيكُم إلى التَّهْلُكَة** » الحج ـــ الآية ٣٨ ؛ فقد ورد عن بعض الصحابة أن المراد بالتهلكة التخلف عن الجهاد ؛ روى الترمذي عن أبي عمران قال : كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم ، فخرج لهم من المسلمين مثلهم وأكثر ... فحمل

رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيده إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال: أيها الناس، أنتم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، لما أعز الله الإسلام، وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله تعالى أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاع منا، فأنزل الله تعالى على نبيه ما يردّ علينا ما قلناه: « **وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إِلَى التَّهْلُكَةِ** »، وكانت التهلكة الاقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو.

قال الراوي: فما زال أبو أيوب شاخصا في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم(٣٣).

---

(٣٣) ابن قيم الجوزية ــ زاد المعاد ج ٢ ص ٦٢ طبع المطبعة المصرية.

الفرع الثاني

أثر التربية الاسلامية في تكوين الشخصية الجهادية

إن الإسلام يربي الجندي المجاهد، وينشئ في الوقت نفسه الأمة المجاهدة.

ويتناول المنهج الرباني الفرد والأمة من جميع الجوانب، فيغرس فيهم أخلاقا إيجابية تدفعهم نحو الجهاد بجميع أشكاله، وتثبتهم عليه، ويطهرهم من جميع المعاني والصفات السلبية والمعطلة عن الجهاد.

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الأخلاق إن هي إلا ثمرات أكيدة لتلك العقائد التي يثبتها الإسلام في قلوب المسلمين. ومع ذلك فقد خصت هذه الأخلاق في القرآن والسنة بالذكر والأمر بها والحث عليها، واعتُبِرت دائما دلائل على صحة تلك العقائد وصدق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، كما أن كثيرا من هذه الأخلاق تُعدُّ ثمرات مباركة للعبادات الإسلامية إذا التزمت بالصورة الصحيحة.

ونذكر فيما يلي الأخلاق الجهادية الفردية التي يمنحها الإسلام لاتباعه، ويجعلها فيهم طبائع ثابتة، ثم نذكر بعد ذلك أهم الأخلاق الجهادية الجماعية التي يربي عليها الإسلام أمته، ويجعلها خصائص لها لا تنفك عنها.

المطلب الأول

الأخلاق الجهادية الفردية التي تثمرها التربية الإسلامية

وتتنوع هذه الأخلاق، بحيث تحافظ على الروح الجهادية في نفوس المؤمنين، في جميع أوقاتهم وأحوالهم: قبل نزال العدو، وأثناءه، وبعده، ومن هذه الأخلاق:

١ ــ تقوى الله عز وجل، ومحاسبة النفس، وهجر الهوى، وضبط الشهوة: فإن من أول أسباب الهزيمة، الانغماس في المعاصي، والخضوع للأهواء والشهوات؛ فإنها مضيعة للطاقات، ومفسدة للجهود، وطريق للاستذلال في كل وقت. وإن من العبث الخروج لمقارعة العدو في الخارج ومقاتلته، قبل قهر العدو الكامن في داخل الإنسان. وقد بيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله »(٣٤). وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قائده سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومن معه من الأجناد: (أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله،

---

(٣٤) رواه الإمام أحمد ــ انظر: مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٢١ ــ المطبعة الميمنية بمصر.

ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا فلن يُسلط علينا وإن أسأنا، فرُبَّ قوم سُلِّط عليهم شرٌّ منهم، كما سُلِّط على بني إسرائيل لمَّا عملوا بمساخط الله كفرة المجوس « **فَجَاسُوا خلالَ الدِّيَار وكَانَ وَعْداً مَفْعُولا** » الاسراء ــ الآية ٥، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ..... »[٣٥]، ويقول ابن قيم الجوزية: (ولما

---

(٣٥) انظر: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ــ أخبار عمر ص ٢٨٥ ــ الطبعة الأولى ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ــ مطابع دار الفكر بدمشق.

ومما شهد به الأعداء في أخلاق المقاتلين المسلمين وصدقهم وتقواهم وصبرهم أنه قدمت مُنْهَزِمة الروم على هرقل وهو بأنطاكية، فدعا رجالا من عظمائهم فقال: ويحكم! أخبروني ما هؤلاء الذين تقاتلونهم؟ أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى « يعني العرب ». وقال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن. قال: ويلكم! فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟ فسكتوا، فقال شيخ منهم: أنا أخبرك أيها الملك من أين يؤتون. قال أخبرني. قال إذا حملنا عليهم صبروا وإذا حملوا علينا صدقوا، ونحمل عليهم فنكذب، ويحملون علينا فلا نصبر. قال: ويلكم فما بالكم كما تصفون وهم كما تزعمون؟ قال الشيخ: ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا؟ قال له: من أين هو؟ قال: لأن القوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يظلمون أحدا ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بما يسخط الله، وننهى عما يُرضي الله ونفسد في الأرض. قال: صدقتني، والله لأخرجن من هذه القرية فما لي في صحبتكم خير وأنتم

كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله كما قال النبي ﷺ: « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج وأصلا له ؛ فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أُمِرَت به وتترك ما نهيت عنه ، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج ؛ فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه ....)(٣٦).

والذين فتحوا البلاد ، ونشروا راية العدل في أرجاء المعمورة هم أولئك الذين وصفهم الله بقوله: « **إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ، كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالأَسْحَارِ هُم يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِم حَقٌّ لِلسَّائِلِ والمَحْرُوم** » الذاريات الآيات ١٦ــ١٩ .

وأما الذين ضيعوا ثمرات ذلك الجهاد فهم اولئك الخلف الذين وصفهم الباري بقوله: « **وَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَوَات** » مريم ــ الآية ٥٩ .

هكذا . قالوا : نشهدك الله أيها الملك ، تدع سورية وهي جنة الدنيا وحولك من الروم عدد الحصى والتراب ونجوم السماء ولم يؤت عليهم . انظر : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ــ عيون الأخبار ج ١ ص ١٢٦،١٢٧ ــ نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(٣٦) ابن قيم الجوزية ــ زاد المعاد في هدى خير العباد ج ١ ص ٢٩٣ طبع المطبعة الميمنة بمصر سنة ١٣٢٤ هـ .

ومن هنا تدرك سر الخطة التي يتبعها المستعمرون واتبعوها في كل بلد حلوا فيه، والتي تقوم على تشجيع التفسخ الخلقي، وعبادة الشهوة، وإشاعة الفاحشة ومطاردة المُثُل والقيم العليا، وأهلها، لأنهم يعلمون أن أصحاب الخلق والتقوى فيهم يكمن الخطر عليهم، وانهم العقبة الكؤود أمام أطماعهم(٣٧).

٢ ــ حماسة القلب، وتعلقه بالغاية التي يجاهد صاحبه من أجلها؛ ذلك أنه لا قيمة لجندي لا غاية له في قتاله، ولا لجندي له غاية غير مقتنع بها، بل إن مجرد الاقتناع لا يكفي، ولا بد من التحمس لهذه الغاية والتعلق بها، ولا ينتظر من الجنود تضحيات بغير هذا؛ يقول مونتجمري في هذا: (إن التعب والخوف والرعب والحرمان وتحمل الموت سوف يواجهها الجندي المقاتل بقلب جسور إذا كان على علم وإيمان بالغرض الذي يقاتل من أجله)(٣٨)، ويقال عن سبب انهيار فرنسا في الحرب العالمية الثانية أن الجندي الفرنسي لم يكن يؤمن بالهدف الذي يقاتل من أجله؛ إذ كان يعتقد أنه يقاتل من أجل بولندا في حرب لا

---

(٣٧) انظر: محمود شيت خطاب ــ الإسلام والنصر ص ١١٢، ١١٣، وانظر مدى تخوف اليهود من المتدينين في بروتوكولات حكماء صهيون ص ١٣٨، وانظر أيضا **محمود شاكر ــ العالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه ٥٥ــ٥٧ الطبعة الثانية ــ ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م.**

(٣٨) انظر محمد جمال الدين محفوظ ــ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص ٢٥٦، ٢٥٧ نقلا عن كتاب « الحرب عبر التاريخ » لمنتجمري.

ناقة له فيها ولا جمل(٣٩).

وليس من دين أو نظام على وجه هذه الأرض يثير في قلوب أتباعه اندفاعا نحو تحقيق غاياتهم، وتعلقا بها، كما يثير الإسلام في قلوب المؤمنين حب إعلاء كلمة الله تعالى وتحطيم رايات الكفر، وانقاذ العباد من ظلم الطواغيت، وتمني الشهادة في سبيل الله تعالى.

وأساس هذا التعلق بالغاية والاندفاع نحوها وعشق الجهاد في سبيلها إدراك المسلم أن الله عز وجل قد كرمه باختياره لأشرف مهمة، وهي الجهاد لإعلاء كلمة الله؛ حيث يقرأ قول ربه: « **وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُم** » الحج ــ الآية ٧٨. ومهمة نشر الخير والمعروف بين العباد، وتخليصهم من الفساد والمنكر؛ حيث يقرأ قول الله عز وجل: « **كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ** » آل عمران ــ الآية ١١٠.

وأساس هذا التعلق بالغاية أيضا احساس المجاهد بأنه جندي من جنود الله، يحارب أعداء الله، وأن الله عز وجل في معيته ينصره ويدافع عنه(٤٠). كذلك فإن هذا التعلق والاندفاع ثمرة لتوجيهات الرسول عليه الصلاة والسلام:

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ

---

(٣٩) المرجع نفسه ص ٢٥٧.

(٤٠) انظر المرجع نفسه ص ٢٥٧، ٢٥٨.

يقول: « والذي نفسي بيده، لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل »(٤١).

ومن أجل هذا أوجب الله على المسلم إن لم تمكنه الظروف من المشاركة الفعلية في قتال الكفار، أن يشارك بقلبه وروحه، فيحدث نفسه بالجهاد، ويسأل الله تعالى الشهادة بصدق؛ حتى يظل مستعدا نفسيا لنزال العدو، حتى إذا أزفت ساعة القتال، وتمكن من الخروج إليه، لم يكن هناك ما يثبطه، ولم يكن ذلك غريبا على نفسه ولا ثقيلا على روحه. وأوضح ما يعبر عن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق »(٤٢). ومن جهة أخرى فقد أخبر رسول الله ﷺ أن طلب الشهادة بصدق جهاد، وإن لم يقتل المسلم في ساحة القتال؛ قال عليه الصلاة والسلام: « من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»(٤٣). وقال أيضا: « من طلب

---

(٤١) انظر: فتح الباري ج ٦ ص ١٢، ١٣، ورواه مسلم ــ انظر المنذري ــ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣١١. وهو في الموطأ للإمام مالك بن أنس ص ٢٨٥ طبعة كتاب الشعب.

(٤٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي ــ انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٥٦ المطبعة المصرية ــ مصر، والترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣٣٠.

(٤٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه ــ انظر الترغيب والترهيب. ج ٢ ص ٢٧٥، وصحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٥٦.

الشهادة صادقا أعطيها وإن لم تصبه »(٤٤).

ولقد تخرج على هذه التربية نماذج من المجاهدين لم تعرف البشرية لهم مثيلا، كانوا يتسابقون إلى الشهادة ويتمنونها، ويسألونها ربهم بصدق وإخلاص، وما أكثر أخبارهم في هذا:

ورد عن عمر رضي الله عنه أنه كان يدعو ربه فيقول: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ(٤٥).

ودعا عبد الله بن جحش ربه فقال: اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غدا، فيقتلوني، ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي وآذاني، ثم تسألني: بم ذاك؟ فأقول: فيك. فبرَّ الله بقسمه، وشوهد آخر النهار وأنفه وأذناه معلقان في خيط(٤٦).

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعا الخروج معه، فذكر ذلك للنبي، فأمر أن يخرج أحدهما، فقال خيثمة لابنه سعد: إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم، فأقم مع نسائك، فقال سعد: لو كان غير الجنة لآثرتك به، إني أرجو الشهادة في وجهي هذا، فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر،

---

(٤٤) رواه مسلم ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٥٥.

(٤٥) أخرجه البخاري عن زيد بن اسلم عن عمر: انظر: الكاند هلوي ــ حياة الصحابة ج ١ ص ٥٢٤ وانظر الموطأ للإمام مالك ص ٢٨٦.

(٤٦) عبد الله بن المبارك ــ الجهاد ص ٧٣، ٧٤ الكاند هلوي ــ حياة الصحابة ج ١ ص ٥٢٥.

فقتله عمرو بن ود(٤٧). فانظر إلى هذا التنافس في الجهاد بين والد وولده.

ولقد كان الواحد منهم يحزن بشدة إذا فاتته فرصة الخروج إلى الجهاد في سبيل الله: ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عُرِضْت على رسول الله ﷺ يوم بدر فاستصغرني، فلم يقبلني، فما أتت عليَّ ليلة قط مثلها في السهر والحزن والبكاء؛ إذ لم يقبلني رسول الله ﷺ. فلما كان من العام المقبل عرضت عليه، فقبلني، فحمدت الله على ذلك(٤٨).

وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول: (ما من ليلة يهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب، أو أبشَّر فيه بغلام أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد في سرية أُصَبِّحُ فيها العدو)(٤٩).

وكان أيضا يقول: (ما أدري من أيِّ يومين أفرُّ، يوم أراد الله أن يُهديَ لي فيه شهادة، أو من يوم أراد أن يُهديَ لي فيه كرامة)(٥٠).

وما أكثر أمثال هذه الصور المشرقة في معارك صحابة رسول الله ﷺ؛ فقد ملأت أخبارهم صفحات الكتب، وصُنِّف فيها المصنفات. فلم تكن صورا فردية نادرة، وإنما كانت هذه خصيصة ثابتة عامة

---

(٤٧) الكاند هلوي ــ حياة الصحابة ج ١ ص ٥٢٩.

(٤٨) أخرجه ابن عساكر ــ انظر الكاند هلوي ــ حياة الصحابة ج ١ ص ٤٦١.

(٤٩) عبد الله بن المبارك ــ الجهاد ص ٩١.

(٥٠) المرجع نفسه.

لجميع الجيل الذي رباه القرآن ومحمد بن عبد الله ﷺ ؛ فإن التاريخ الصادق ما ذكر لنا اسما لرجل دخل مدرسة رسول الله ﷺ إلا وقد ذكر معه قصة أو قصصا من أمثال ما تقدم من البطولات والشجاعة والاقدام .

٣ ــ الصبر والثبات : فإنه لا يماري عاقل في أن الصبر والمصابرة والتحمل والثبات من مؤهلات النصر ، ولا نصر بدون هذه الأخلاق ولم يؤثر في تاريخ البشرية كلها أن منهجا أو دينا أو نظاما استطاع أن يثبت هذه الفضائل في نفوس اتباعه مثلما فعل الإسلام في المسلمين الذين صدقوا في حمله وتمثله . ولا عجب في ذلك ؛ فإن القرآن الذي اتخذه المسلمون دستورا وإماما ، قد حثهم على هذه الأخلاق ، وأوقع في قلوبهم أنها دلائل الإيمان وصدقه . حتى لقد وردت كلمة (صبر ومشتقاتها) في نحو ثلاثمائة آية من آيات الذكر الحكيم(٥١) . وكثيرا ما قرن ذكر الصبر مع الإيمان وكثيرا ما قرن مع الجهاد ؛ لأن الصبر من جهة ثمرة الإيمان الصادق ، ومن جهة فإنه مؤهل الجهاد والعمل الصالح ، قال تعالى : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُو وَرَابِطُوا واتَّقوا الله** » آل عمران / ٢٠٠ ، وقال عز وجل معلما المؤمنين أحسن الدعاء : « **رَبَّنَا افْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا** » البقرة / ٢٥٠ ، وقال تعالى : « **ثُمَّ جَاهَدُوا وصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيم** » النحل / ١١٠ . ولذلك جعل سبحانه التواصي بهذ الخلق من خصال

---

(٥١) محمود شيت خطاب ــ الإسلام والنصر ص ٤٠ .

المجتمع المؤمن، ومن شروط النجاة من الخسران: فقال سبحانه: « **وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** » سورة العصر.

ومن ثمرات الصبر الثبات والشجاعة، ولقد حث عليهما القرآن بشدة، فقال عز وجل: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم فِئَةً فَاثْبُتُوا** » الأنفال ــ الآية ٤٥.

وأما الشجاعة، فيكفيك فيها أن الإسلام اعتبر التولي يوم الزحف بالنسبة للمسلم كبيرة من الكبائر، وموبقة من الموبقات، فقال سبحانه وتعالى: « **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدبَارَ، وَمَنْ يُوَلِّهِم يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئسَ المَصِيرُ** » الأنفال ــ الآيتان ١٥، ١٦. وأن الرسول عليه الصلاة والسلام علّمنا فيما ندعوا التعوذ من الجبن: « اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحَزَن، والعجز والكسل، والجُبن والبخل، وضلع الدَّيْن (ثقل الدين) وغلبة الرجال »(٥٢).

تلك هي نداءات رب العباد لجنده المؤمنين، ولقد أثمرت تلك النداءات فامتثلها الجند، يقودهم رسول الله ﷺ، فضرب لهم المثل والأسوة؛ فكان أصبر الصابرين، وأشجع الشجعان، واتبعه أصحابه،

---

(٥٢) أخرجه البخاري ــ انظر: فتح الباري ج ١١ ص ١٤٩.

وتأسوا به. وأخبار صبره عليه الصلاة والسلام، وثباته وشجاعته، يُقصِّر عنها مثل هذا المقام، وتقصر عنها الكتب والمؤلفات، وتتصاغر أمامها شجاعة الشجعان، وصبر الصابرين، وثبات الثابتين:

ففي مكة ثبت على دعوته، وصبر على أذى قريش، ووسائلها في الترغيب والترهيب، وصدع بالحق الذي أوحِيَ به إليه من ربه، ولم يتنازل عن أي شيء منه، ولم يكن معه يومئذ سيف ولا رمح، ولا أُمِرَ بقتل ولا قتال، وتأمل هذا الخبر الصحيح الذي نقلته إلينا كتب السيرة وانظر ما أعظم شجاعة هذا الرسول وثباته: قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: لقد رأيتُهم وقد أجتمع أشرافهم يوما في الحِجْر(٥٣)، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سَفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، وصرنا معه على أمر عظيم. قال: فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مرَّ بهم طائفا بالبيت، فغمزوه(٥٤) ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ فمضى، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفتُها في وجهه، فمضى فمرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال: « أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح »، فأخَذَتِ القومَ كلمتُه، حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع؛ حتى إن

---

(٥٣) أي حجر الكعبة.

(٥٤) غمزوه أي طعنوا فيه بالقول.

أشدَّهم فيه وصاة(٥٥) قبل ذلك ليرفؤه(٥٦) بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف أبا القاسم راشدا، فما كنت بجهول، فانصرف رسول الله ﷺ. حتى إذا كان الغد واجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بدأكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم على ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام: نعم أنا الذي أقول ذلك(٥٧).

فانظر إلى هذا التحدي الشديد لقريش، وهذه الشجاعة الفريدة، في وقت لم يكن له من المخلوقات سند. وأما في المدينة فحسبك أن تعرف أنه عليه الصلاة والسلام قاد المسلمين في أقل من عشرة أعوام في ثمان وعشرين معركة، برزت فيه شجاعته عليه السلام، وصبره وثباته، بشكل يبهر العقول ويأخذ بالألباب، ويدعو إلى أعظم الأعجاب(٥٨).

---

(٥٥) وصاة: وصية، يعني الذين كانوا يُحرِّضون عليه ويوصون بإيذائه.

(٥٦) يرفؤه: يترضّاه ويهدِّئه ويسكّنه.

(٥٧) عبد الملك بن هشام ــ سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ٣١٠،٣١١، طبع القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ، ابن كثير ــ السيرة النبوية ج ١ ص ٤٧١،٤٧٢.

(٥٨) انظر: محمد جمال الدين محفوظ ــ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص ٢٨٢. محمود شيت خطاب ــ الرسول القائد (الملحق ل ــ الغزوات التي قادها الرسول بنفسه) ص ٤١٢ــ٤١٨. وانظر المرجع نفسه ص ٤٢٣.

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لمَّا كان يوم بدر، اتقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأسا، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه)(٥٩). وقال أيضا: (إنا كنَّا إذا اشتدَّ الخطب واحمرَّت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ، وقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو)(٦٠). ويقول البراء بن عازب فيما أخرجه البخاري: (كنَّا إذا حَمِيَ البأس نتقي برسول الله ﷺ، وإن الشجاع الذي يحاذي به)(٦١). وعن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس. كان فزع بالمدينة، فخرج الناس قبل الصوت، فاستقبلهم رسول الله ﷺ وقد سبقهم إلى الصوت وعرف الخبر، وكان راكبا فرسا عاريا فقال: لم تُراعوا(٦٢) ...

وثباته عليه السلام في أُحد والخندق ويوم حُنَيْن وغيرها أمر معروف ومشهور، وهو مما يجل عن الوصف. وفي معظم المعارك كان صبره عليه السلام وثباته وشجاعته أول العوامل التي يستجلب بها نصر الله عز وجل.

---

(٥٩) ابن الجوزي ــ الوفا بأحوال المصطفى ج ٢ ص ٤٤٣.

(٦٠) نفسه، وانظر محمد جمال الدين محفوظ ــ المدخل إلى العقيدة ص ٢٨٢، ومحمود شيت خطاب ــ الرسول القائد ص ٤٣١.

(٦١) نفسها.

(٦٢) أخرجه مسلم ــ انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٥ ص ٦٧. وأخرجه البخاري ــ انظر فتح الباري ج ٦ ص ٢٧.

وأما أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، فما زالوا ولن يزالوا أعلاما وأمثالا في هذا الخلق الكريم بعد الأنبياء والرسل عليهم السلام. وكيف لا؟ ومنهلهم القرآن، وقائدهم أشجع الشجعان عليه الصلاة والسلام؛ فإن الشجاع يربي الشجعان. وأخبار صبرهم وثباتهم وإقدامهم تملأ الكتب والمصنفات لمن أراد أن يتأسى: ففي مكة تحمّل السابقون منهم الأذى الشديد، وصبروا على التعذيب والتنكيل والمقاطعة والجوع، وثبتوا على الحق الذي حملوه بصدق. ثم صبروا بعد ذلك على مفارقة المال والأهل والولد والوطن. وخرجوا وقد تركوا كل شيء من الدنيا، وحملوا معهم دعوتهم ودينهم. وفي المدينة جاهدوا وصبروا وثبتوا، وتحمّلوا في جهادهم القتل والجوع والعطش ونقص الأموال والأنفس والثمرات، حتى نصرهم الله عز وجل بعد أن نصروا دينه: عن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة رَمَتْهُم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت: « **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ** »(٦٣) النور ــ الآية ٥٥.

ومن أخبار صبرهم وتحملهم وثباتهم رضوان الله عليهم:

قال محمد بن سيرين: إن كان الرجل من أصحاب النبي ﷺ يأتي

---

(٦٣) أخرجه ابن المنذر والطبراني والحاكم والبيهقي ــ انظر: الكاند هلوي ج ١ ص ٣٠٠، ٣٠١.

عليه ثلاثة أيام لا يجد شيئا يأكله، فيأخذ الجلدة فيشويها فيأكلها، فإذا لم يجد شيئا أخذ حجرا فشد به صلبه(٦٤).

وأخرج الترمذي وصححه: (أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخرُّ رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة)(٦٥).

وعن ابن سعد في الطبقات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجت يوما من بيتي إلى المسجد لم يخرجني إلا الجوع، فوجدت نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا هريرة، ما أخرجك هذه الساعة؟ فقلت: ما أخرجني إلا الجوع، فقالوا: نحن والله ما أخرجنا إلا الجوع. فقمنا فدخلنا على رسول الله ﷺ، فقال: ما جاء بكم هذه الساعة؟ فقلنا: يا رسول الله جاء بنا الجوع، قال: فدعا رسول الله ﷺ بطبق فيه تمر، فأعطى كل رجل منا تمرتين، فقال: كلوا هاتين التمرتين، واشربوا عليهما من الماء فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا. قال أبو هريرة: فأكلت تمرة وجعلت تمرة في حجزتي، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة لم رفعت هذه التمرة؟ فقلت: رفعتها لأمي، فقال: كلها فإنا سنعطيك لها تمرتين(٦٦).

ويوم الأحزاب كان رسول الله ﷺ وصحابته يحفرون الخندق، وقد

---

(٦٤) انظر: المُنذري ــ الترغيب الترهيب ج ٤ ص ٢١٥.

(٦٥) انظر المنذري ــ الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢١٥.

(٦٦) انظر: الكاند هلوي ــ حياة الصحابة ج ١ ص ٣١٩.

شدوا على بطونهم الحجارة من الجوع(٦٧).

وفي غزوة تبوك يقول عمر رضي الله عنه: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعتصر فرثه، فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع الله لنا، فقال أوتحبّ ذلك؟ قال: نعم، قال: فرفع يديه إلى السماء، فلم يرجعهما حتى قالت السماء ــ أي تهيأت ــ فأطلّت(٦٨) ثم سكبت، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر(٦٩).

وأخرج أحمد والنسائي وغيرهما عن أبي ريحانة رضي الله عنه، أنه كان مع النبي ﷺ في غزوة، قال: فأوينا ذات ليلة إلى شرف (مكان عال) فأصابنا برد شديد حتى رأيت الرجال يحفر أحدهم الخندق، فيدخل فيها، ويلقي عليها حجفته (أي ترسه)(٧٠).

وفوق الجوع والعطش كانوا رضوان الله عليهم يتحملون ويصبرون

---

(٦٧) انظر: ابن حجر ــ فتح الباري ج ٧ ص ٣١٧، والكاند هلوي ــ حياة الصحابة ج ١ ص ٣٢٠.

(٦٨) فأطلّت: من الطلّ وهو المطر الخفيف.

(٦٩) انظر ابن كثير ــ السيرة النبوية ج ٤ ص ١٦، وابن القيم ــ زاد المعاد ج ٣ ص ٤ طبع المطبعة المصرية.

(٧٠) انظر: الكاند هلوي ــ حياة الصحابة ج ١ ص ٣٢٥.

على قلة ذات اليد، وقلة الثياب والأمراض والجراح في سبيل الله:

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: لقد رأيت حمزة رضي الله عنه وما وجدنا له ثوبا نكفّنه غير بردة إذا غطينا بها رجله خرج رأسه، وإذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، فغطينا رأسه ووضعنا على رجليه الاذخر(٧١).

وعن أبي السائب رضي الله عنه أن رجلا من بني عبد الأشهل قال: شهدت أحدا أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي: اتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ ووالله ما لنا دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحا منه، فكان إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون(٧٢).

---

(٧١) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٢٦، والإذخر حشيشة طيبة الريح.

(٧٢) ابن كثير ــ السيرة النبوية ج ٣ ص ٩٨، علي بن برهان الدين الحلبي ــ السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٥٢ وفيها أن الذين خرجوا خلف قريش بعد غزوة أحد إلى حمراء الأسد هم الذين حضروا أحدا، وأنهم خرجوا وبهم الجراحات، ولم يلتفتوا إلى معالجة جراحاتهم، فمنهم من كان به تسع جراحات وهو أسيد بن حضير رضي الله عنه، وعقبة بن عامر رضي الله عنه، ومنهم من كان به عشر جراحات، وهو خراش بن الصمة رضي الله عنه، ومنهم من كان به بضع عشرة جراحة، وهو كعب بن مالك رضي الله عنه، ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة وهو طلحة بن عبد الله وقطعت إصبعه وشلت بقية أصابع يده، ومنهم من كان به عشرون جراحة وهو عبد الرحمن بن عوف، وخرج معهم الرسول عليه الصلاة والسلام وهو مجروح، وفي وجهه أثر الحلقتين ومشجوج في وجهه ومكسورة رباعيته.

وأخرج أحمد عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه (وكان أعرج) صحيحة في الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقتلوه يوم أحد، فمر عليه رسول الله ﷺ فقال: كأني أنظر إليه يمشي برجله هذه صحيحة في الجنة(٧٣).

٤ ــ **التضحية بالنفس والمال**: وهذا الخلق الجهادي الكريم ثمرة أكيدة لما تقدم من الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من القيم الخالدة؛ فقد ربى الإسلام المجاهدين، وأثبت في قلوبهم أن هذه الدنيا وما فيها إن هي إلا وسائل يتوصل بها إلى السعادة الأبدية في تلك الدار الباقية.

وقد أمر سبحانه عباده المؤمنين بالتضحية في هذه الدنيا بما جُعل بين أيديهم من الوسائل ليحرزا بها أربح تجارة وأحسن مصير: « **إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الجَنَّة يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُم الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ** » التوبة ــ الآية ١١١. وقال عز وجل: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عِلى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُم**

---

(٧٣) ابن القيم ــ زاد المعاد ج ٢ ص ٩٦، طبع المطبعة المصرية، الكاندهلوي-حياة الصحابة ج ١ ص ٣٣٣.

وَأَنفُسِكُم، ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إِنْ كُنتُم تَعْلَمُون »

الصف ــ الآيتان ١٠، ١١.

وقد وردت كلمة الجهاد ومشتقاتها في إحدى وأربعين آية من آيات القرآن(٧٤). وأما الانفاق في سبيل الله، والتضحية بالمال لإعلاء كلمة الله، فقد ورد الحث عليها أحيانا مقترنا بالجهاد بالنفس، وأحيانا أخرى مستقلا، قال تعالى: « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ » البقرة ــ الآية ٢٦١، وحينما فسر مكحول رضي الله عنه هذه الآية الكريمة قال: يعني بها الانفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعدا السلاح وغير ذلك(٧٥).

ومما رُوي عن رسول الله ﷺ في ذلك قوله: « من أرسل بنفقة في سبيل الله، وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله، وأنفق في وجهه ذلك فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم، ثم تلا صلوات الله عليه وسلامه هذه الآية « واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاء »(٧٦).

---

(٧٤) انظر محمود شيت خطاب ــ الإسلام والنصر ص ٤٤.

(٧٥) عبد الحليم محمود ــ الجهاد والنصر ص ١٢٣.
وانظر الطبري ــ التفسير (جامع البيان) ج ٥ ص ٥١٢ــ٥١٤ طبع دار المعارف بمصر.

(٧٦) رواه ابن ماجه ــ انظر المنذري ــ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٥٣.

وقد رأيت فيما تقدم كيف لبى الصحابة رضوان الله عليهم هذه الدعوة الربانية، وعقدوا الصفقة مع ربهم، وتخلوا عن ملذات الحياة الفانية، فربحوا بها السعادة الحقيقية. فكانوا أمثلة للناس في كل زمان، يُتَأَسَّى بهم ويُقتَدى في هذا الخلق العظيم.

٥ ــ الطاعة والنظام: فخُلُقُ الطاعة يعتبر أساسا هاما من أسس الروح العسكرية. وهو ما يطلق عليه في المطلحات العسكرية تعبير (الضبط). وقرر العلماء العسكريون أن الفرق بين الجندي الجيد والجندي الرديء أن الأول مطيع والثاني غير مطيع، أي أن الأول يتحلى بالضبط المتين، والثاني قليل الضبط. ويعرفونه بأنه إطاعة الأوامر وتنفيذها نصا وروحا بدون تردد عن طيبة خاطر وبحرص وأمانة(٧٧).

ولقد حض الله سبحانه وتعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام على هذا الخلق باستفاضة كبيرة؛ فقال تعالى: « **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** » النساء ــ الآية ٥٩. وقال عز وجل: « **مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ** » النساء ــ الآية ٨٠، كما أخبر سبحانه وتعالى أن التردد في الطاعة عند الأمر بالقتال مرض في القلوب وخصلة من خصال النفاق لا يصح أن يقع في القلوب المؤمنة فقال: « **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ، فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ يَنْظُرُونَ**

---

(٧٧) انظر: محمود شيت خطاب ــ الإسلام والنصر ص ٣٤٩، ٤٠، محمد جمال الدين محفوظ ــ المدخل إلى العقيدة الاستراتيجية والعسكرية الإسلامية ص ٢٣٤.

إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فَأَوْلَى لَهُم طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ، فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ »

محمد ــ الآيتان ٢٠، ٢١.

وحث رسول الله ﷺ على الطاعة في كثير من أحاديثه الشريفة؛ من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « من أطاعني فقد أطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله ومن يُطع الأمير فقد أطاعني، ومن يَعْصِ الأمير فقد عصاني »(٧٨) ويقول عليه الصلاة والسلام: « إذا كنتم ثلاثة في سفر فأَمِّرُوا أَحَدَكم، ذاك أمير أمَّره رسول الله »(٧٩).

والجدير بالذكر أن هذا الخلق في المسلم ليس كما هو في غير المسلمين من حيث الأساس الذي يقوم عليه؛ فهو يرتكز على أساس متين، وينبثق من عقيدة في القلوب. ذلك أن طاعة الأمير في غير معصية الله أمر يرتبط بسلامة الدين وصحة العقيدة وليس أمرا مبنيا على خوف من القائد، أو خوف على الرزق، وقيام هذا الخلق على هذا الأساس يجعله طبيعة للمسلم وخصيصة ملا زمة له، وليس مجرد صفة عارضة تذهب بذهاب سببها العارض، كما هو الحال عند كثير من الذين يطيعون أمراءهم بسبب خوف أو طمع.

وقد كان رسول الله ﷺ يبايع أصحابه دائما على السمع والطاعة

---

(٧٨) رواه مسلم ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٢٣.

(٧٩) رواه البزار بإسناد صحيح ــ انظر: الشوكاني ــ نيل الأوطار.

في العسر واليسر والمنشط والمكره كما هو معلوم في السيرة العطرة(٨٠)، ويدعوهم إلى ذلك كما في قوله عليه الصلاة والسلام: « عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك وإثرة عليك »(٨١).

وقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة بالطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر. وتاريخ الصدر الأول من الإسلام مليء بأمثلة الطاعة التي أدت بالكثير من المسلمين إلى التضحية بالمال والنفس في سبيل الله تعالى. فلم يكن أحدهم مهما عَلَتْ رتبته يأنف من طاعة أميره وكان ينزل عند أمر القائد، مهما كان رأيه الخاص. فهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه كان قائدا عاما على المسلمين في أرض الشام، قاد المسلمين في معركة اليرموك الفاصلة إلى النصر. وعزله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو في أوج انتصاراته، لمصلحة عامة رآها في عزله، فلم يأنف خالد من هذا الأمر، وإنما أطاع الأمير، وظل مشهرا سيفه في وجه أعداء الله عز وجل(٨٢).

وينتج عن هذا الخلق خلق آخر يعتبر ــ أيضا ــ أساسا في الروح العسكرية وهو النظام، لأن طاعة الأوامر تؤدي إلى الانتظام في كل حركة يقوم بها المسلم. ومن المعلوم أن لله في كل نشاط يقوم به المسلم في حياته حكما من أمر ونهي أو إباحة. فجهاده في سلمه وحربه محكوم

---

(٨٠) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٢٢٨.

(٨١) المرجع ذاته ج ١٢ ص ٢٢٥.

(٨٢) انظر: الطبري ــ تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٤٣٧ و ج ٤ ص ٦٦ــ٦٨.

لهذه الأوامر والنواهي . والنتيجة جهاد منظم ليس فيه فوضى ولا عبث .

وقد أمر الله عز وجل بالانتظام في القتال ، فقال سبحانه : « **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ** »

الصف ـــ الآية ٤ .

٦ ـــ **الحذر واليقظة** : وهذان الخُلُقان من تعاليم الدين الحنيف التي ربى عليها جنده في مواجهة الأعداء . فمما علّمهم أن الاستهانة بالعدو وعدم الاحتياط له والحذر منه يؤدي إلى الخسران ؛ فقال لهم : « **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُم** » النساء ـــ الآية ٧١ . كما نادى سبحانه قائد المؤمنين عليه الصلاة والسلام وقال له : « **فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُم وَأَسْلِحَتَهُم . وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُم وَأَمْتِعَتِكُم فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُم إِنْ كَانَ بِكُم أَذًى مِن مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُم ، وَخُذُوا حِذْرَكُم ، إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً** » النساء ـــ الآية ١٠٢ . والمقصود بقوله تعالى : « **فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ** » صلاة الخوف . وقد شرعها الله سبحانه وتعالى للمجاهدين في وقت القتال ؛ بحيث يوفّقون بها بين عبادة الله والتوجه إليه ، وبين ممارسة أعمال القتال . وفي هذا إيحاء عميق لجند الله بوجوب اليقظة والحذر من جهة ، ووجوب المحافظة على ذكر الله وعبادته من جهة أخرى ، والقتال والصلاة عبادتان لا يجوز للمؤمنين أن يغفلوا عن إحداهما ، فشرع لهم سبحانه ما به يحافظون عليهما جميعا .

ولقد تحلى جند الإسلام من الرعيل الأول رضوان الله عليهم بهذا الخلق العسكري في جميع معاركهم، وجميع أحوالهم، وقد تقدم معك كيف كانوا لا يدعون السلاح ليلا ولا نهارا، يبيتون فيه، ويفيقون عليه، استجابة لنداء ربهم بوجوب الحذر من العدو الذي عرفهم الله بنواياه، وأنه لا يرقب في المؤمنين عهدا ولا ذمة.

٧ ــ أضف إلى جميع ما تقدم من الأخلاق الجهادية الايجابية أن **الإسلام يُطَهِّر المسلم من كل خلق سلبي معطل عن الجهاد**، فمن المعلوم أن كل خلق أمر به سبحانه وحث عليه، حرَّم في مقابله كل خلق مضاد:

(أ) فحرَّم على المجاهدين أن يغفلوا لحظة عن الهدف الذي يجاهدون من أجله، وهو إعلاء كلمة الله عز وجل، وحذَّرهم من أن تكون غايتهم شخصية أو أنانية، من جاه أو ذكر أو عصبية لقبيلة، أو لتكون أمة هي أربى من أمة، أو لمغنم دنيوي من مال وغيره.

(ب) كما حذَّرهم من عصيان الله تعالى، أو أن يرفضوا أمرا يصدره قائد الدعوة عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: « **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** »
النور ــ الآية ٦٣.

(ج) وحرَّم عليهم اليأس والقنوط من رحمة الله، قال تعالى: « **لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ** » الزمر ــ الآية ٥٣. وقال تعالى: « **وَمَن**

يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلا الضَّالُّونَ » الحجر ــ الآية ٥٦ . وقال أيضا : « وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ، إنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلا القَوْمُ الكَافِرُون » يوسف ــ الآية٨٧ . وفي غزوة أحد قال لهم ربهم تبارك وتعالى : « وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُم مؤْمِنِينَ ، إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الذين آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، واللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذينَ آمنُوا ، وَيَمْحَقَ الكَافِرِين » آل عمران ــ الآيات ١٣٩ــ١٤١ .

(د) وإذا كان الله قد حرَّم عليهم اليأس والقنوط في الضراء ، فقد حرَّم سبحانه عليهم البطر في السراء ، فقال لهم عز وجل : « وَلَا تَكُونُوا كالَّذين خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّون عَنْ سَبِيلِ اللهِ واللهُ بِما يَعْمَلُون مُحِيطٌ » الأنفال ــ الآية ٤٧ .

(هـ) وحرَّم عليهم الجبن والخوف من الناس ، فقال تعالى لهم : « أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْه إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين » التوبة ــ الآية ١٣ . وقد مر معك تعوذ رسول الله ﷺ من الجبن .

(و) وحرَّم عليهم التولي يوم الزحف ، واعتبره من الموبقات ، فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُم الَّذينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ » الأنفال ــ الآية ١٥ .

(ز) وحَذَّرهم من العزوف عن التضحية بالمال والنفس في سبيل

الله عز وجل، وقد تقدم معك أن الله سبحانه وتعالى اعتبر ذلك إلقاءً لليد في التهلكة، وعلمت أن هذا هو المراد من قوله تعالى: « **وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إلى التَّهْلُكَة** » البقرة ــ الآية ٩٥، أي بالقعود عن الجهاد بالنفس والمال.

(ح) كما حذّرهم من الاستغراق في الشهوات، والارتباط بزينة الحياة الدنيا والتثاقل إلى الأرض. فقال عز وجل: « **يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَا لَكُم إذا قِيلَ لَكُم انْفِرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إلى الأَرْضِ، أَرَضِيتُم بِالحَياةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخرة، فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلَّا قَلِيلٌ، إلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُم عَذَابَاً أَلِيمَاً وَيَسْتَبْدِل قَوْمَاً غَيْرَكُم، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً والله عَلَى كلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ** »

التوبة ــ الآيتان ٣٨ــ٣٩.

(ط) وحذّرهم أيضا من الغرور بأنفسهم وكثرة عَدَدِهم أو عُدَدِهم، ونسيان حقيقة أن النصر من عند الله لا من عند أنفسهم، فقال لهم عن غزوة حُنَيْن حين اغتروا فيها بكثرة عَدَدِهم في أول الأمر: « **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُم شَيْئاً وَضَاقَت عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ** » التوبة ــ الآية ٢٥.

المطلب الثاني
الأخلاق الجهادية الجماعية

الأمة المجاهدة لا بد لها، علاوة على تلك الصفات الفردية التي يجب أن يتحلى بها أفرادها، من أن تتصف بصفات جماعية تربط بين أولئك الأفراد الصالحين، وتبني منهم أمة قوية متماسكة، لا منفذ فيها لأعدائها.

وقد عني الإسلام بتثبيت هذه الصفات في المجتمع المسلم. ومن أهمها:

أولا: الوحدة:

مما لا شك فيه أن من عوامل النصر وحدة الأمة، والدعوة إلى هذه الوحدة هي من طبيعة الإسلام؛ فهو الذي يزرع أصولها في قلوب المؤمنين، ويمكّن الشعور بها. ولا تدوم وحدة إلا إذا انعقدت عليها الضمائر والقلوب، وقد يتجمع بعض الناس على أرض واحدة، وتحت سيطرة حاكم واحد، يجمعهم بالترغيب أو الترهيب، ولكنها وحدة مزعزعة الأركان، ضعيفة الأساس، ستتفسخ إن عاجلا أو آجلا؛ لأنها قامت على غير أساس متين، وقد قال تعالى عن أمثال هؤلاء: « **بَأْسُهُمْ بَيْنَهُم شَدِيدٌ، تَحْسَبُهُم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُم شَتَّى، ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ** » الحشر ــ الآية ١٤.

إن الإسلام يستأصل من قلوب المؤمنين كل شعور بالاختلاف، ويوحد بينهم بوسائل وأساليب كثيرة منها:

أ ــ فهو يعرِّفهم بوحدة أصلهم، وأنهم انبثقوا من نفس واحدة، ليثبت في عقولهم وقلوبهم أساس وحدتهم وتساويهم، قال تعالى: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً** » النساء ــ الآية الأولى.

ب ــ وبعد أن يهيء الإسلام قلوب أتباعه لقبول الوحدة، يشرع في إدخالهم فيها بالفعل؛ فيجمعهم أولا على عقيدة واحدة، يؤمنون فيها برب واحد، هو رب السموات والأرض والخلق أجمعين، فيجتمعون على حبه وخشيته وتقواه، والتوجه إليه بقلوبهم وأعمالهم، والتلقي منه وحده سبحانه، فتتوحد وجهة قلوبهم ومشاعرهم، ويلتقون بها جميعا عند عبادة الله وحده، فلا ينشأ في قلوبهم أي سبب للفرقة والاختلاف، قال تعالى: « **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** »

الأنبياء ــ الآية ٩٢.

ج ــ ثم يجمعهم الإسلام بعد ذلك على قيادة واحدة، فلا يختلفون في طريق التلقي عن ربهم، وإنما يأخذون هدى الله عن طريق رسول الله ﷺ، قائدهم وقدوتهم، قال تعالى: « **فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** » النساء ــ الآية ٦٥.

د ــ ثم يجمعهم على تشريع واحد، وأحكام واحدة، يتساوى فيه الناس في الحقوق والواجبات، لا يفرق فيها بين أبيض وأسود، ولا بين

قوي ولا ضعيف، ولا بين حاكم ومحكوم، والكل سواء أمام القانون الإسلامي وأمام القضاء الإسلامي، فليس لأحد خصوصية في ذلك؛ يقول رسول الله ﷺ: « إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »(٨٣).

هـ ــ كذلك يجمعهم الإسلام على قيم واحدة، وأخلاق واحدة، وموازين واحدة، يزنون بها الأشخاص وأفعالهم، بينها لهم ربهم في كتابه الكريم، ورسوله عليه الصلاة والسلام في سنته الشريفة. وبذلك تتحد نظرتهم وأوزانهم للناس، وقياسهم للأعمال والأخلاق؛ فكلهم يرفعون مَن رَفَعَ الله سبحانه، ويخفضون مَنْ خَفَضَه الله عز وجل ويجعلون المسئوليات في يد مَنْ تأهَّل بأخلاق الإسلام وقيمه ،ويحجبون الثقة عمن قصَّر في هذه المؤهلات.

و ــ أضف إلى ذلك أن الإسلام يجمع أهله على لغة واحدة، هي لغة القرآن، ولغة رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام.

وهكذا فإن الإسلام لا يترك منفذا للفرقة إلا سده، ولا طريقا للوحدة إلا سلكه.

ولقد جربت البشرية في حقبة من الزمن هذه التربية الربانية،

---

(٨٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ــ انظر: الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٤٧،٢٤٨. وانظر: ابن حجر العسقلاني ــ بلوغ المرام من أدلة الأحكام ص ٢٦١ طبع ١٣٥٢ هـ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

فأخرجت للوجود بها أمة موحدة متآلفة، لا مكان فيها للفرقة والاختلاف. فقد كانت أمة العرب قبل الإسلام مضرب المثل في التناحر والتنافر، حتى منّ الله عليها بهذا الإسلام، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، حامل راية هذا الدين، فصاح بهم صيحة التوحيد، فوثب المختلفون الممزقون المتناثرون الساجدون للآت والعزى ومناة، وغسلوا جباههم، وطهروها من دنس الشرك، ونظفوها من رجس الخضوع لغير الله عز وجل. وسجدوا لله الواحد القهار، وساروا جميعا على درب واحد، يعبدون إلها واحدا، هو رب الأرباب، وينقادون لقائد واحد، هو المصطفى رسول الله ﷺ، وَدَعوا غيرهم إلى المسيرة، من عُبَّاد النار وعُبَّاد الهوى من فرس وروم وغيرهم، فانضموا إلى ركبهم، فأصبحوا جميعا بنعمة الله إخوانا، فتجمع في المجتمع الإسلاميّ العربيّ والفارسيّ والشاميّ والمصريّ والمغربيّ والتركيّ والهنديّ والصينيّ والرومانيّ والأندونيسيّ والافريقيّ وغيرهم على قدم المساواة وبقلوب موحدة الهدف، موحدة الاتجاه(٨٤).

ولذا تدرك أخي القارئ أن طريق الوحدة والقوة هو الرجوع إلى الإسلام، وأنه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأن من العبث وخيانة الأمانة، وتضييع الوقت، أن تُطْلَبَ الوحدة بغير سبيل الله سبحانه وتعالى.

---

(٨٤) انظر: سيد سابق ــ عناصر القوة في الإسلام ص ١٩٢ ــ الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م ــ مصر.

ثانيا ــ توثيق الرابطة :

والإسلام بعد أن يوحّد بين أهله، في العقيدة والقيم والأخلاق والأحكام، فإنه يشدُّهم بعضاً إلى بعض، بأوثق الروابط التي يمكن أن تكون بين البشر، ليحافظ على تلك الوحدة ويوثقها بين المؤمنين، وهذه هي رابطة الأخوة في الدين، فيقرِّر سبحانه لهم قرارا يدعوهم إلى تحقيق مضمونه في حياتهم الواقعية، ويقول لهم: « **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** » الحجرات ــ الآية ١٠ .

وتقتضي هذه الأخوة الحب والايثار، قال تعالى: « **وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِم، يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم، وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنفُسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَة، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** »
الحشر ــ الآية ٩ .

ومن ثمرات هذه الرابطة الأصلاح بين الأخوة، قال تعالى: « **فَأَصْلِحُو بَيْنَ أَخَوَيْكُم** » الحجرات ــ الآية ١٠ . والتواصي بالحق والخير قال عز وجل: « **وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَنَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبر** »
سورة العصر .

ومن ثمراتها أيضا التعاون على البر والتقوى، قال تعالى: « **وَتَعَاوَنُوا عَلى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَان** »
المائدة ــ الآية ٢ .

والنصرة بالعدل والحق، قال تعالى: « **وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُم فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُم مِيثَاق** » الأنفال ــ الآية ٧٢. وقال ﷺ: « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »(٨٥).

ومن ثمراتها أيضا حب الخير للأخوة؛ قال عليه الصلاة والسلام: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(٨٦). وكذلك قضاء الحاجة لهم وسترهم وعدم التشهير بهم والتيسير عليهم في عسرهم؛ يقول الرسول ﷺ: « من نفّس عن مؤمن كربة من كُرَبِ الدنيا نَفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسّر على معسر يَسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »(٨٧)، ويقول تعالى: « **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّون أن تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ فِي الدُّنيَا والآخرة** » النور ــ الآية ١٩.

ومن مقتضيات هذه الرابطة كفّ الأذى عن الأخوة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يَبِعْ بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره، التقوى هٰهنا ــ وأشار إلى

---

(٨٥) رواه مسلم ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٣٧.

(٨٦) رواه البخاري ومسلم ــ انظر: اللؤلؤ والمرجان ــ حديث رقم ٢٨.

(٨٧) رواه مسلم ــ انظر النووي ــ رياض الصالحين ص ١١٩ طبع مصر سنة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م المطبعة اليوسفية وابن حجر العسقلاني ــ بلوغ المرام ص ٢٩٩، ٣٠٠.

صدره ــ ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يُحَقِّر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه »(٨٨).

وإذا كانت هذه هي الصورة التي يرسمها الإسلام لرابطة الأخوة بين المؤمنين، فإن الناظر يجد لها التطبيق العملي التام في حياة الصحابة رضوان الله عليهم. ومن أبرز صور هذه الأخوة الايمانية، ما نقلته لنا كتب السيرة بأسانيد صحيحة عن التزام اولئك الأخيار بما عقده الرسول عليه الصلاة والسلام بينهم من المؤاخاة في أول مَقْدَمِه للمدينة المنورة، يقول ابن إسحاق: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال لهم « تآخوا في الله أخوين أخوين » ... وكان أبو بكر وخارجة بن زيد الخزرجي أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين، والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة أخوين، وكل واحد من الأنصار اتَّخذ له أخاً من المهاجرين يحبه ويؤثره على نفسه. بل كانوا في بداية العهد المدني يتوارثون على أساس هذه الأخوة، لا على أساس قرابة الدم. ثم جُعِل الأرث بعد ذلك على أساس القرابة. ومن صور الايثار المبني على هذه الأخوة أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قَدِمَ المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أي أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالا، فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيّهما أعجب إليك حتى أطلّقها. فقال عبد الرحمن:

---

(٨٨) أخرجه مسلم ــ انظر بلوغ المرام ص ٣٠٤.

بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق، فذهب واشترى وباع فربح (٨٩) .....

والذي ينبغي أن لايغيب عن الذهن أن قوة الرابطة بين المؤمنين هي من أهم مؤهلات النصر في قتال الأعداء، وهو ما يسمى اليوم بتماسك الجبهة الداخلية، والذي غدا في هذه الأيام شعارا لا مضمون له بعد أن أدار الناس ظهورهم لدين الله عز وجل، ويمَّموا وجوههم شطر أهوائهم وزينة الدنيا، من مال وجاه وسلطان.

إن مادة هذا التماسك المتينة لا يصنعها إلا أخوة الإيمان ورابطة العقيدة؛ فإنه لا يوجد سبب للتوحيد والتعاون بين البشر كالتآلف والتحاب، ولا يوجد سبب للتحاب والتآلف كأخوة الإيمان، قال الله عز وجل: « **هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِم، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم، ولكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُم** » الأنفال ــ الآيتان ٦٢،٦٣، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (قرابة الرحم تُقطع، ومنَّة النعمة تكفر، ولم يُرَ مثل تقارب القلوب)، ثم قرأ الآية السابقة، وفي رواية أخرى عنه: (إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم

---

(٨٩) انظر تفصيل حوادث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار عند ابن هشام ــ سيرة النبي ﷺ ج ٢ ص ١٢٣ وما بعدها طبع القاهرة ١٣٨٣ هـ (كتاب التحرير)، وعند ابن كثير ــ السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٢٤ــ٣٢٩.

يزحزحها شيء)(٩٠).

إن الأضغان الموروثة بين البشر، وأوتار الدماء المسفوكة، وحمية الجاهلية وعصبيتها، لا تزول بالأغراض الدنيوية العارضة، وإنما تزول بالإيمان الصادق، الذي يوحد القلوب في وجهتها ومشاعرها، يقول رسول الله ﷺ: « إنَّ من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يَغبِطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى » قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: « هم قوم تحابُّوا بروح الله بينهم على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، والله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس »(٩١).

وقد جُربت هذه الأخوة، فأخرجت للبشرية أقوى أمة وأمتنها، تحطمت أمام رابطتها القوية جميع دسائس الأعداء، وبخاصة اليهود الذين لا يعيشون إلا على تفرق الشعوب وتفسخها وضعف رابطتها، وإن من يدرس التاريخ ليلاحظ كيف كان اليهود في المدينة المنورة، قبل تشريف أهلها بالإسلام وأخوة الإيمان، عَلوْا فيها واستكبرو استكبارا، وكانوا يقتاتون على تناحر الأوس والخزرج من العرب، فلمَّا حلَّ فيهم دين الله،

---

(٩٠) رواه البيهقي وعبد الرزاق والحاكم: انظر: محمد رشيد رضا ــ تفسير المنار ج ١٠ ص ٨٢ طبع شركة الطباعة الفنية المتحدة ١٣٤٩ هـ، وابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٣٢٣.

(٩١) أخرجه أبو داود ــ انظر: سنن أبي داود ج ٣ ص ٧٩٩ طبع استنبول.

ونَعِمَ الأوس والخزرج برابطة الأخوة في الله، تلاشت تلك الغطرسة اليهودية، وذلّت تلك الكبرياء المبنية على الفساد؛ حيث فقدت أساس وجودها، بعد أن قضى الإسلام على كل فرقة واختلاف بين سكان المدينة من المسلمين. ويلاحظ أن هذه الكبرياء عادت تتغذى على فرقة أمتنا واختلافها في هذه الأيام، بعد أن اتّخذت دين ربها ظِهريا. كما يلاحظ كيف يحرص أعداؤها على محاربة الإسلام وما أتى به من الرابطة الوثيقة والحبل المتين، ويخادعون أبناءها بما يزينون لهم من البدائل الكثيرة من الروابط الواهية التي لم يُقصد بها سوى تعميق الغفلة عن تلك الرابطة القوية التي جاء بها الإسلام.

إن السلف الصالح تعرض لمثل هذه المحاولات الكافرة التي دأب عليها أعداء الإسلام، وخاصة اليهود، لقطع تلك الرابطة الربانية بإثارة العصبيات القديمة والنعرات القبلية، وروابط الدم، فكان المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ يُحبطونها، بالرجوع إلى الله ورسوله ﷺ، والتمسك بكتابه، وبالأخوة الإيمانية، ومن أمثلة هذه المحاولات ما رواه المفسرون أن شاس بن قيس اليهودي، وكان شيخا عظيم الكفر شديد الضّغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، مرَّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وإلفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة(٩٢) بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم من قرار،

---

(٩٢) بنو قيلة: هم الأنصار من الأوس والخزرج، وقيلة اسم أم لهم قديمة هي قيلة بنت كاهل.

فأمر فتى شابا من يهود وكان معه، فقال: أعمد إليهم، فاجلس معهم، وذكّرهم يوم بُعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بُعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا، حتى توائب رجلان من الحيّين على الركُب .... ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة(٩٣)، وغضب الفريقان وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة(٩٤)، فخرجوا إليها، وانحاز كل أناس إلى قبيلتهم، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبِدَعوْى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟ فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد اليهود ونزل قول الله تعالى: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** »(٩٥) آل عمران ــ الآية ١٠٠.

---

(٩٣) أي جديدة كما بدأت، والجذع والجذعة الصغير السن من الأنعام. يعني أعدناها شابة فتية.

(٩٤) المقصود بالظاهرة: حرة المدينة.

(٩٥) انظر الطبري ــ التفسير ج ٧ ص ٥٥، ٥٦.

وهذا هو أسلوب أعداء الإسلام من أهل الكتاب في التفريق بين المسلمين، وذلك دواؤه، وما زال لليهود أسلوبهم في الكيد والمكر والفتنة، ولا ينفع معه إلا ذلك الدواء الرباني الناجع، وكلُّ لافتة تُرفع في هذه الأيام لابراز أية رابطة بديلة عن رابطة العقيدة وأخوة الإيمان، سواء أكانت رابطة القومية أم الوطنية أم الاقليمية، أم غيرها، فإنما هي لافتات يمسكُ بمقابضها أعداء أمتنا وأعداء ديننا من يهود وصليبيين(٩٦). وإن يعجب الإنسان فالعجب من أمة لا تستفيد من تجاربها وخبراتها: صلح أمرُها بالإسلام، وارتفعت رايتها به، وعزَّت بكتاب الله وسنة رسوله، آماداً طويلة، فلما ابتغت العزة بغير الإسلام أذلّها الله، ومكّن منها أعداءها، وسلّط عليها شرار الناس، وما زالت سادرة في غفلتها. فلينتبه الغافلون من أبناء المسلمين، وليحوِّلوا مسيرتهم إلى هدى الله تعالى؛ فإنه لا يصلح أمرهم إلا بما صلح به أمر سلفهم الصالح المهتدي.

ثالثا: إخلاص الولاء لله ورسوله والمؤمنين:

والإسلام بعد أن يوثّق العلاقة بين أهله بأخوة الإيمان، وبعد أن يوحد بينهم في المسيرة والهدف، فإنه يقطع الطريق على أعدائهم، فلا يترك لهم أي منفذ ينفذون منه إلى أمة الإسلام، فيطلب من المسلمين

---

(٩٦) انظر: محمود شاكر ــ العالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه ص ٥٦، ٧٢، ٧٣، ٧٤.

أن يقطعوا ولاءهم لأي كافر مهما كان، قريبا أو عشيرة أو غير ذلك، وأن يُخلصوا في ولائهم لله ورسوله والمؤمنين؛ وإلا فمن اتخذ الكافر وليا فإنه مثله، ولا يجوز أن يعيش بين أظهر المسلمين(٩٧)، يقول الله سبحانه وتعالى: « **لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَه وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُم أو أَبْنَاءَهُم أوْ إِخْوَانَهُم أوْ عَشِيرَتَهُم** » المجادلة ــ الآية ٢٢. ويقول عز وجل فيمن يوالي أهل الكتاب: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُم فَإِنَّهُ مِنْهُم، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ....** » إلى قوله: « **إِنَّمَا وَلِيُّكُم اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** » المائدة ــ الآيات من ٥١ــ٥٦.

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة أن امرأة من المسلمين قَدِمَت بِجَلَبٍ لها فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على

---

(٩٧) انظر تفصيلا لحكم موالاة الكفار عند محمد نعيم ياسين ــ الإيمان ص ١٤١ وما بعدها.

اليهود، فلما كان ذلك من بني قينقاع حاصرهم الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى أمكنه الله منهم، فقام المنافق عبد الله بن أبيّ بن سلول يشفع فيهم ويشير من طرف خفي إلى فتنة تحدث في المدينة إذا لم يقبل الرسول شفاعته. هذا في الوقت الذي وقف فيه عبادة بن الصامت رضي الله عنه موقفا من يهود بني قينقاع مناقضا لموقف ذلك المنافق مع أنه كان حليفهم، فتبرأ منهم، وتولى الله ورسوله، وخشي الرسول عليه الصلاة والسلام أن يجر الأمر إلى فتنة، فاكتفى بإجلاء بني قينقاع من المدينة. ثم نزلت تلك الآيات تبين نفاق عبد الله بن أبيّ بن سلول، وتُبيِّن أن الإيمان وموالاة أعداء الله لا يجتمعان(٩٨).

ومما ورد في النهي عن موالاة الأعداء قوله تعالى: « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُم أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِنَ الحَقِّ** ... » الممتحنة ــ الآية الأولى. وسبب نزول هذه الآية أن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كتب كتابا إلى أهل مكة حين همَّ رسول الله ﷺ بغزوهم يعلمهم فيه حال مسيرهم إليه، وأنفذه مع سارة مولاة لبني عبد المطلب، فأطلع الله نبيه إليها، فأنفذ عليا والزبير في إثْرِها حتَّى أخرجاه من قرن رأسها، فدعا حاطبا فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: والله يا رسول الله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما كفرت ولا بدَّلت، ولكني امرؤ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم أهل وولد، فطالعتهم بذلك، أردت أن

---

(٩٨) انظر: علي بن برهان الدين الحلبي ــ السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٧٥.

تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال: صدق، لا تقولوا له إلا خيرا، فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال: أليس من أهل بدر؟ لعل الله قد اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة. فأنزل الله الآية السابقة(٩٩)، مبينا أنه لا يجوز لأحد من المؤمنين أن يمالئ المشركين أو يميل إليهم أو يحابيهم في نصرة دين الله، ولو كانوا أولي قربى؛ فإن حق الله أوجب، ونصرة دينه ألزم(١٠٠).

ومن أمثلة صدق الولاء لله والرسول وللمؤمنين موقف المؤمن الصادق عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول، حينما بلغه عن أبيه أنه قال في حق رسول الله والمؤمنين « **ليخرجن الأعزُّ منها الأذلّ** »، حيث أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده منّي، إني أخشى أن تأمر به غيري، فيقتله، فلا تدعني نفسي انظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي

---

(٩٩) أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه ــ انظر ابن كثير ــ التفسير ج ٤ ص ٣٤٥.

(١٠٠) انظر: أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء ــ الأحكام السلطانية ص ٤٦ ــ الطبعة الثانية ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م مطبعة البابي الحلبي بمصر.

معنا. ولما قفل الناس راجعين إلى المدينة، بعد غزوة بني المصطلق وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة، واستلّ سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أُبيّ قال له ابنه: وراءك، فقال: ما لك؟ ويلك، فقال: والله لا تجوز من ههُنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، ومنعه من دخول المدينة حتى أذن له الرسول عليه الصلاة والسلام(١٠١).

ومن مواقف الولاء الصادق لله ورسوله ذلك الموقف الرباني الذي وقفه سعد بن معاذ رضي الله عنه، من يهود بني قريظة، وكانوا حلفاء الأوس، وذلك عندما مكّن الله رسوله منهم، بعد أن خانوا العهد، وكادوا ينحازون للأحزاب في غزوة الخندق، حيث خيَّرهم الرسول ﷺ فيمن يحكم فيهم، فاختاروا سعد بن معاذ لهذه المهمة آملين أن يحابيهم في حكمه أو يخفف عنهم ما يستحقونه من النكال، ويؤثر عنه عندما أختير لهذه المهمة أنه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

ولما أخذ الموافقة على الحكم، من المسلمين ومن اليهود، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتُغنم الأموال وتسبى الذراري والنساء، وزاد بعضهم (وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار)، وعلّل ذلك فقال: أحببت أن يستغنوا بذلك عن إخوانهم الأنصار. فقال رسول الله

---

(١٠١) انظر ابن كثير ــ التفسير ج ٢ ص ٣٧٢. والحلبي ــ السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٢.

ﷺ: « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » أي السموات السبع(١٠٢).

ومن هذه المواقف موقف زوج النبي ﷺ أم حبيبة رضي الله عنها من أبيها أبي سفيان، عندما قدم المدينة قبيل فتح مكة في محاولة لابقاء الصلح قائما بين المسلمين، بعدما نقضته قريش وحلفاؤها، حيث دخل عليها، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ، طوته عنه، فقال: بنيَّة ما أدري أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني؟ فقالت: بل هو فراش النبي ﷺ، وأنت مشرك نجس. قال: والله لقد أصابك بعدي شر. فقالت: بل هداني الله تعالى للإسلام، وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يُبصِر(١٠٣).

إن هذه الخصيصة العظيمة في مجتمع الإيمان تعتبر سياجا قويا يحميه من جميع محاولات الأعداء في التجسس عليه، ومعرفة أسراره وأخباره. وإذا أردت أن تعرف قيمة هذه الخصيصة، فانظر إلى أمتنا بعد أن توزَّع ولاؤها بين هذا المعسكر أو ذاك من معسكرات الكفر، فلم يبق لها سر إلا عرفه الأعداء، فهذا يمد مولاه في الشرق بأسرار أمته، وذلك يمد مولاه، وتبقى الأمة المغلوبة على أمرها مكشوفة أمام أعدائها. وتعجب بعد ذلك كل العجب، كيف لا يثوب أبناؤها إلى رشدهم، فيرجعون إلى ربهم ودينهم، فلا يكون ــ عندئذ ــ بينهم منافق ولا جاسوس، ولا يكون لهم ولاء إلا لربهم ورسوله وأمتهم.

---

(١٠٢) الحلبي ــ السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٦٥،٦٦٦.

(١٠٣) نفسه ج ٣ ص ٦،٧.

رابعا ــ الاستقلال والتميز:

لا تكون أية أمة من الأمم مؤهلة للجهاد، إذا كانت تدور في فلك غيرها من الأمم. والإسلام كما يوحِّد مجتمع الإيمان ويوثِّق رابطته، يحرِّره من أية تبعية لأي مجتمع آخر، ويجعل له شخصية مستقلة وكيانا متميزا، فلا يعود ذيلا للمجتمعات الأخرى، ومَصبًّا لعاداتها وتقاليدها، ولا إمَّعة ذائب الشخصية.

إن الإسلام يوجد مجتمعا متميزا بعقيدته، التي تقوم أساسا على التحرر من العبودية للبشر، وإخلاص العبودية لله وحده. ومتميزا بأخلاقه وقيمه وعاداته وتقاليده؛ لأنها مأخوذة من تلك العقيدة. ولا يسمح بتقليد يأتيه من شرق أو غرب، إلا إذا وزنه بميزانه، وعرف أنه غير متناقض مع تلك العقيدة وتلك القيم الربانية، وإلا سد أمامه السبيل.

كذلك يوجد مجتمعا متميزا ومستقلا بنظمه وتشريعاته؛ لأن أصولها وقواعدها من عند الله عز وجل، وفروعها مشتقة من تلك القواعد والأصول الربانية.

خامسا ــ اعلاء القيم الجهادية:

من البدهيات أن خُلُقاً من الأخلاق لا يسود في مجتمع، إلا إذا قدَّره أبناؤه ورفعوه، وجعلوه أساسا في تقدير الأشخاص، وإسناد المسؤوليات

إليهم، وإلا فإنه يضمر في المجتمع، ويقل أهله المتخلقين به.

وهذه قاعدة من القواعد التي تحكم الحياة الاجتماعية بين البشر، وعلى ضوئها تستطيع أن تفسر ما يؤول إليه حال قوم من انتشار الرذائل والقيم الهابطة، وضمور كثير من الفضائل والقيم العليا؛ فإن هذه ثمرة طبيعية لما يربّى عليه المجتمع، بوسائل مختلفة، يمسك بها أناس غفلوا عن ذكر الله، من حب الشهوات، والتثاقل إلى الأرض، ونبذ القيم العالية؛ حتى يعلو فيه شأن كل أمر تافه لا يستحق الاعتبار، وينخفض فيه كل أمر حقّه العلو والارتفاع، وبذلك يرتفع الجاهلون والمنافقون والقاعدون وشرار الناس، ويُنبذ العلماء والعاملون والصادقون والمجاهدون وخيار الناس.

أما الإسلام، الدين الذي ارتضاه الله للعباد، فإنه يربّي أتباعه على التعلق بكل قيمة سامية، وخلق قويم، وجميع خصال الخير، ويُكَرِّه إليهم أضدادها. فإذا نظرت إلى مجتمع الإيمان وجدت فيه الكلمة المسموعة لأهل الفضل والخير والعلم والجهاد والتقوى، والدعوة إلى سبيل الله تعالى. ولا تعجب بعد ذلك إذا رأيت الناس يتنافسون في هذه الخصال، فتنمو فيهم نموا كبيرا، ويربُّون عليها أنفسهم وأبناءهم.

وما ذلك إلا ثمرة للتربية الإلهية الحكيمة لعباد الرحمن، حيث علمهم ربهم أن المكانة العليا بينهم يجب أن تكون للمجاهدين، والرفعة للدعاة إلى الله عز وجل، والثقة للعلماء العاملين، والكرامة للأتقياء الصالحين،

فقال عز وجل: « لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤمِنِينَ غَيْرُ أولي الضَّرَرِ والمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأمْوَالِهِم وَأنْفُسِهِم » النساء ــ الآية ٩٥ ، وقال تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذينَ يَعْلَمُون والَّذينَ لا يَعْلَمُون » الزمر ــ الآية ٩ ، وقال : « إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتْقَاكُم » الحجرات ــ الآية ١٣ ، وقال سبحانه : « وَمَنْ أحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إلى الله » فصلت ــ الآية ٣٣ ، وقال أيضا : « وَضَرَبَ الله مَثَلًا رَجُلَيْنِ أحَدُهُمَا أبْكَمُ لا يَقْدِرُ على شيء ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ ، أيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صراطٍ مُستَقِيم » النحل ــ الآية ٧٦ ، وقال أيضا : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الخَبِيثُ والطَّيِّبُ ، وَلَوْ أعْجَبَك كَثْرَةُ الخَبِيثِ »

المائدة ــ الآية ١٠٠ .

ولقد أثمرت هذه التربية ثمراتها الطيبة في المجتمع المسلم الأول ، وتمسَّك بها أبناؤه ، حكاما ومحكومين . واذكر في هذا المقام بعض الأمثلة التي توضح كيف كان اولئك المهتدون يرفعون من رفعه الله عز وجل ، ويؤخرون من أخَّره الله ؛ حتى كان ذلك حافزا لمن تأخَّر أن يتقدم ، ومن سَبَقَ أن يَزْدَاد من الخير والفضل :

من ذلك أنه حضر ناس باب عمر رضي الله عنه ، وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب والشيوخ من قريش ، فخرج آذِنُه ، فجعل يأذَن لأهل بدر ، كصهيب وبلال وعمار رضي الله عنهم ، فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط : أن يؤذن لهذه العبيد ، ونحن جلوس لا

يُلتَفت إلينا، فقال سهيل بن عمرو: إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم: دُعِيَ القوم فدُعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، إن هؤلاء القوم قد سبقوكم بما ترون، ولا سبيل لكم والله إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله عز وجل أن يرزقكم الجهاد والشهادة، ثم نَفَضَ ثوبه، فقام فلحق بالشام(١٠٤).

فانظر كيف كان لهذا الخلق الجماعي الذي غرسه الإسلام في قلوب المؤمنين أثر فعال في استخراج القوى والطاقات من النفوس، حتى لا يبقى إنسان عنده ذرة من خير إلا وأظهرها ونمَّاها وقوَّاها. وقارن هذا بما غدت عليه أمتنا بعد أن أسلمت قيادها لمن لا يعرفون الله، ولا يعرفون إلا ذواتهم وشهواتهم، فربوها على إعلاء القيم الهابطة، وهَجْر تلك القيم الجهادية، حتى غدا التنافس بينها في تلك القيم المُخذِّلة، وصار عندها التعامل بالأخلاق الجهادية من قوة ورجولة وصبر وثبات تجارةً بائرةً منبوذةً، لا يتاجر بها إلا قليل من الناس الذين غدوا غرباء عن أمتهم.

وأضرب لك مثلا آخر يعطيك صورة عملية لأثر هذا الخلق العظيم

---

(١٠٤) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب والحاكم ــ انظر الكاند هلوي ــ حياة الصحابة ج ١ ص ٤٦٣. وقريب منه عند عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ــ عيون الأخبار ــ المجلد الأول ج ١ ص ٨٥ ــ طبعة مصورة عن دار الكتب ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وانظر الطنطاويين على وناجي ــ أخبار عمر ص ٢٠٤، ٢٠٥ نقلا عن ابن الجوزي في سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه طبعة ١٣٧٩ هـ.

في استخراج الهمم ونهوضها: وهو موقف الأمة المسلمة بقيادة رسول الله ﷺ، من أولئك المُخَلَّفين الثلاثة، الذين قعدوا عن الجهاد، لمَّا دُعِيَ المسلمون إلى غزوة تبوك، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ومع أن هؤلاء الثلاثة لم يكن تخلُّفهم عن شك ونفاق، لكن موقف الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته منهم، كان صارما وقاسيا، مقابل تقاعُسِهم عن عمل عظيم رفعه الله ورسوله والمؤمنون، وهو الجهاد لاعلاء كلمة الله عز وجل؛ فقد أمر الرسول ﷺ أن لا يكلمهم أحد من المسلمين، فاعتزلهم الجميع، وتغيروا لهم حتى ضاقت عليهم أنفسهم، وَلَبِثُوا على ذلك خمسين ليلة، ولما مضت أربعون ليلة منها، بعث إليهم الرسول ﷺ بأن يعتزلوا نساءهم، فقال كعب لامرأته: (إلحقي بأهلك حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض) ..

وأما هلال بن أمية، فقد جلس في بيته يبكي، وامتنع عن الطعام، يواصل اليومين والثلاثة ما يذوق طعاما، إلا أن يشرب الشربة من الماء، أو القليل من اللبن، ويصلي الليل، ولا يخرج من بيته، لعلمه أن أحدا من الناس لا يكلمه؛ امتثالا لأمر القائد عليه الصلاة والسلام، وجاءت امرأته فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، وأنا أرفق به من غيري، فإن رأيت أن تَدَعني أخدمه فعلت؟ فقال لها الرسول: نعم، ولكن لا تدعيه يصل إليك، فقالت: يا رسول الله ما به من حركة إليَّ، والله ما زال يبكي، منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، وإن لحيته لتقطر دموعا الليل والنهار، ولقد ظهر البياض

على عينيه حتى تخوفت أن يذهب بصره(١٠٥) ....

هكذا كان موقف الأمة الربانية ممن يتقاعس عن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وهكذا كان أثر هذا الموقف في المتخلفين، وهذا لعمر الحق هو التواصي بالحق والصبر الذي أمرنا الله به، وهذا هو المنهج العظيم في علاج المرضى وحفز الكسالى.

وفي هذه الحادثة بالذات موقف آخر للمسلمين يعطيك صورة لفرحهم برجوع المخلفين إلى الله وتوبتهم وقبولها، بعد أن صاروا إلى حالة وصفها ربهم بقوله: « **حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَت، وَضَاقَت عَلَيْهِم أَنْفُسُهُم وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللهَ هو التَّوَّابُ الرَّحِيم** » التوبة ــ الآية ١١٨. لقد فرح المسلمون لنزول القرآن معلنا قبول الله توبتهم فرحة لا تقل عن فرح المخلفين أنفسهم؛ يقول كعب بن مالك: بعد أن كَمُلَت خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما كان صلاة الفجر صبح تلك الليلة سمعت صوتا فوق جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدا، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد آذن، أي أُعلِمَ بتوبة الله علينا، فلما جاءني الرجل الذي سمعت صوته يبشرني، نُزعت له ثوبَيَّ، فكسوته إياهما ببشراه، ووالله لا أملك غيرهما يومئذ، واستعرت من أبي قتادة رضي الله عنه ثوبين فلبستهما،

---

(١٠٥) انظر: الحلبي ــ السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٢٤ وما بعدها. والطبري ــ التفسير ج ١٤ ص ٥٤٩ وما بعدها.

وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة، يقولون ليهنئك توبة الله عليك .... فلما سلّمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشِر بِخيْر يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك، قلت: أمِن عندك يا رسول الله أم من عند الله عز وجل؟ قال: لا بل من عند الله. فقلت يا رسول الله، إن من توبتي أن انخَلِعَ من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال رسول الله: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك(١٠٦) .....

فانظر إلى القيم التي يتعامل بها هؤلاء الناس: ماذا يكرهون؟ وماذا يحبون؟ وعلى أي شيء يتلاومون ويتعاتبون؟ وفي أي شيء يتنافسون؟ وبأي شيء يفرحون؟ وبأي شيء يبشرون بعضهم بعضا؟ وعلى أي شيء يهنئون بعضهم بعضا؟.

الجهاد، التوبة، الصدقة والانفاق، حبُّ الله، وحبُّ الرسول ﷺ: هذه هي القيم الربانية التي كانوا يتعاملون بها ويحرصون عليها، ويزِنون بها الأشخاص والأفعال والأحوال، فلما كانت بينهم رائجةً نصرهم الله على عدوهم نصرا مؤزرا، ولما جفاها الناس في هذه الأيام، واستبدلوا بها قيم الدنيا الزائلة، انتقم الله منهم، فسلط عليهم عدوهم، وسلّط بعضهم على بعض، وما زالوا سائرين إلى الهاوية، وليس من مخرج، والله، من هذه المصائب كلها إلا بالرجوع إلى تلك القيم والتعامل بها، ونبذ غيرها.

---

(١٠٦) انظر المرجعين ذاتهما.

سادسا ــ التنظيم :

يبني الإسلام أمة منظمة في كل جانب من جوانب الحياة، وفي كل حال من أحوالها؛ ذلك أنه لا تصلح أمة للجهاد حتى تكون منظمة.

وليس هناك مجال من مجالات الحياة إلا وللإسلام فيه منهج ونظام: في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، وفي السلم والحرب. وليس من مجال أو ميدان للجهاد، إلا وجعل الإسلام للجهاد فيه نظاما دقيقا يلزم المسلمين اتباعه؛ بحيث لا يوصل الجهاد فيه إلى الغاية الشرعية المطلوبة إلا باتباع ذلك النظام: فجهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد المنكر والفسق وأهلهما، وجهاد الظلم والظَّلَمة من الحكام وغيرهم وجهاد الكفار، كل ذلك يخضع لتعاليم إسلامية واضحة(١٠٧)، يُعتبر المتجاوز لها مسيئا يستحق العقوبة في الآخرة، فضلا عن حبوط عمله في الحياة الدنيا، بمعنى عدم صلاحيته لانتاج المعاني والنتائج المرجوة.

فجهاد النفس مثلا يجب أن يكون بمتابعة الشرع في الأوامر والنواهي، وتعلّم الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسِيَر الصحابة والصالحين ولا يجوز أن يكون بالتصورات والتخيلات والرياضات والاجتهادات الخاصة التي لم يشرعها الله سبحانه ولا رسوله عليه الصلاة والسلام؛ يقول أبو حامد الغزالي: (خلاصة العلم أن

---

(١٠٧) انظر بعض ذلك عند محمد نعيم ياسين ــ الجهاد ميادينه وأساليبه، حيث خصص لبيان أنواع الجهاد وميادينه ومجالاته ووسائله.

تعلّم الطاعة والعبادة، واعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني: كل ما تقول وتفعل وتترك قولا وفعلا يكون باقتداء الشرع: كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيا، أو صليت في ثوب مغصوب، وإن كانت صورة عبادة، تأثم. فينبغي لك أن يكون قولُك وفعلُك موافقا للشرع؛ إذِ العلمُ والعملُ بلا اقتداء الشرع ضلالة. وينبغي لك أن لا تغترَّ بالشطح وطامّات الصوفية؛ لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة، وقطع شهوة النفس، وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطامّات والترهات)[١٠٨].

وكذلك جهاد الشيطان له طرقه وأساليبه، وقد عني بعض علماء المسلمين في الماضي والحاضر بوضع مصنفات تبين تلك الطرق، بعد بيان أساليب الشيطان ومداخله[١٠٩].

وكذلك جهاد المنكر والفسق والظلم له قواعد وآداب، هي القواعد والآداب التي يجب اتباعها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد عُني بعض العلماء بذكر واستنباط أحكام هذه الفريضة، بصورة تفصيلية، مثل: الماوردي وأبو يعلى في (الأحكام السلطانية) والغزالي في (إحياء علوم الدين)، وابن تيمية في كتاب (الحسبة في

---

(١٠٨) انظر رسالة أيها الولد ص ٢٦، ٢٧ ــ مطبعة المعارف ــ بغداد.

(١٠٩) انظر مثلا: تلبيس إبليس لابن الجوزي، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم، وعالم الجن والشياطين لعمر الأشقر.

الإسلام)، وأبو بكر الخلال في كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وابن حزم في (المحلى)، وغيرهم(١١٠).

وكذلك جهاد الكفار وقتالهم، فقد شرع الإسلام للجيش المسلم نظاما خاصا لكل حركة يتحركها، من وقت الاعلان عن القتال إلى ما بعد انتهاء المعارك، وقد عني العلماء المسلمون قديما وحديثا بوضع مصنفات تبين نظم القتال الإسلامية(١١١).

سابعا ــ الاعداد المادي:

يضاف إلى جميع ما تقدم من القوى المعنوية التي يشحن الإسلام بها الأمة الإسلامية أنه يدعوها إلى الاهتمام بإعداد القوة المادية حتى يجعل ذلك من خصائصها وشيمها، يقول الله عز وجل: « **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِم لا تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعلَمُهُمْ** » الأنفال ــ الآية ٦٠.

---

(١١٠) انظر: محمد نعيم ياسين ــ الجهاد (ميادينه وأساليبه) ص ١٨٠، ١٨١ ــ الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.

(١١١) مثل كتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، ومن أحدث الكتب المؤلفة في هذا الموضوع كتاب القتال في الإسلام ــ أحكامه وتشريعاته لمحمد بن ناصر بن عبد الرحمن الجعوان. وفي كل مصنف من المصنفات الفقهية القديمة يوجد كتاب خاص لبيان أحكام الجهاد بمفهومه الخاص، أي القتال.

كما حثّ الإسلام المؤمنين على تعلم جميع أساليب القتال ومؤهلاته من رمي وركوب الخيل والرباط في سبيل الله، وتربية الأبناء على الرجولة والخشونة وغير ذلك(١١٢).

بل إن الإسلام لَيَعْتَبِرُ أيّ إعداد للقتال عبادةً يتقرب بها المسلم إلى ربه، كالصلاة والصوم والصدقة، بل ذهب بعض العلماء إلى أنه أفضل من صلاة التطوع(١١٣).

وفي الحث على الاعداد للقتال أخبار كثيرة عن رسول الله ﷺ، كلها تفصل ما دعت إليه الآية الكريمة السابقة من وجوب استفراغ الوسع في إعداد القوة، وحيازة وسائلها، لتكون سببا في إرهاب عدو الله والمسلمين. فيدخل في ذلك توفير السلاح المكافئ لسلاح العدو على الأقل، والتدرب عليه، والمرابطة في الحدود والحراسة فيها، وبناء ما يُحتاج إليه من القواعد والحصون والقلاع والأسوار، وحفر الخنادق إذا دعت إليه الحاجة، وغير ذلك من الاحتياطات اللازمة(١١٤):

---

(١١٢) انظر تفصيل موضوع الاعداد للقتال في الإسلام عند محمد بن ناصر الجعوان ــ القتال في الإسلام ــ أحكامه وتشريعاته ــ دراسة مقارنة ص ٧٠ــ٨٩ ــ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ــ الرياض.

(١١٣) ابن تيمية ــ مجموع الفتاوي ــ المجلد ٢٨ ص ١٢ ــ الطبعة الأولى سنة ١٣٨٣ هـ، مطابع الرياض.

(١١٤) انظر: محمود شيت الخطاب ــ الرسول القائد ص ٣٥،٣٦، محمد بن ناصر الجعوان ــ القتال في الإسلام ص ٧٧ وما بعدها.

أ ــ أما توفير السلاح فلما تقدم من الآية الكريمة التي دعت إلى إعداد القوة الكافية لايقاع الرهبة في قلوب الأعداء الظاهرين والمستترين، فيكون ذلك مقدمةً لكبح عدوانهم، ولهزيمتهم إذا هاجمهم الجنود المسلمون.

وهذا يقتضي أن تحصل الأمة على السلاح بكل وسيلة مشروعة، ويقتضيها أن تُؤمِّن المال، والامكانات المجموعة من الأكفاء القادرين على صنع السلاح وتجهيزه وتمويله، والتدرب عليه، فتسد حاجة الأمة في هذا المضمار.

من أجل هذا ندب رسول الله ﷺ للمسلمين أن يربُّوا الخيول، ويحتبسوها لنزال العدو الذي يصد عن سبيل الله تعالى، والدفاع عن بيضة الإسلام إذا اعتُدي عليها، ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من احتبَس فرسا في سبيل الله، إيمانا بالله وتصديقا بوعده، فإن شَبَعَهُ وَرِيَّهُ وروثَهُ وبولَهُ في ميزانه يوم القيامة »(١١٥)، أي أنها تحتسب له حسنات.

وحكم الإسلام في هذا الاعداد، وأنه عبادة إذا قُصد به وجه الله تعالى، **يقتضي أن لا يُمنع أي فرد من المسلمين من اقتناء السلاح لاستعماله في الجهاد عند الحاجة إليه، والحاجة إليه في مجتمع الإسلام**

---

(١١٥) رواه البخاري والنسائي وغيرهما ــ انظر: الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٥٨.

قائمة على الدوام، لأنه مجتمع مجاهد، يبتغي اعلاء كلمة الله دائما، وحماية دعوة الله عز وجل من أعدائها. ولأن العدو قد يفاجِئ منطقة من مناطق الإسلام، فيجب على أهلها الدفاع عنها، ويكون ذلك فرض عين على كل مسلم قادر في هذه المنطقة، حتى إذا عجزت عن صد العدوان، كان أهل المنطقة المجاورة مكلفين بإمداد إخوانهم وتحقيق الكفاية لصد العدوان، وهكذا حتى يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم قادر، على أيّ بقعة من الأرض وجد. فيحرُمُ في شرع الله أن يُحرَمَ المسلمون من السلاح، وخاصة بعد ما تطورت الأسلحة الحديثة، ولو أن المسلمين أخذوا بهذا التوجيه الإسلامي في حروبهم مع أعدائهم في هذه الأيام، لما استطاع العدو أن يأخذ شبرا من أراضيهم.

ب. وأما التدرب على السلاح فيدخل في عموم الآية السابقة أيضا، ويدخل فيه التدرب على جميع أنواع الأسلحة من رماية وطيران وغيرهما، وتعلم الأساليب العسكرية، ودراسة الخطط العسكرية في الدفاع والهجوم، ونحو هذا. وقد ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في الحث على الرمي والتدرب عليه، من ذلك:

قوله عليه الصلاة والسلام مفسرا الآية الكريمة « **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّة** ... »: « ألا إنّ القوة الرميُ، ألا إنّ القوة الرميُ، ألا إنّ القوة الرميُ »(١١٦).

---

(١١٦) أخرجه مسلم وغيره ـــ انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٦٤.

وقوله: « ارموا واركبوا، وأنْ ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا، ومن تعلَّم الرميَ ثم نسيه فليس منا »(١١٧)

وقوله: « كل لَهو يلهو به الرجل فهو باطل، إلا رميُه بقوسه، وتأديبُه فرسَه، وملاعبتُه امرأتَه، فإنهُنَّ من الحقِّ »(١١٨).

وقوله: « ستُفتح عليكم أرضون، ويكفيكُم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بسهمه »(١١٩).

وقوله: « ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا، ارموا وأنا مع بني فلان » فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال: « ما لكم لا ترمون؟ » قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ: « ارموا فأنا معكم كلكم »(١٢٠).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والراميَ به، ومُنبِلَهُ ... »(١٢١).

---

(١١٧) انظر ابن تيمية ــ مجموع الفتاوي ــ المجلد ٢٨ ص ٩ ــ وقد ورد في هذا المعنى روايات أخرى: انظر المنذري ــ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٧٧ــ٢٨٢.

(١١٨) أورد هذه الرواية ابن تيمية ــ مجموع الفتاوي ــ المجلد ٢٨ ص ٩ وما بعدها وأخرج الطبراني في الكبير ما هو قريب منه، وزاد فيه « تعلم السباحة » من الأمور التي شرع اللهو بها ــ انظر: الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٧٩.

(١١٩) أخرجه مسلم ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ص ٦٤.

(١٢٠) أخرجه البخاري ــ انظر فتح الباري ج ٦ ص ٦٩، ٧٠.

(١٢١) رواه أبو داود والنسائي والحاكم والبيهقي ــ انظر المنذري ــ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٧٦، ٢٧٧.

وإذا كان السيف والقوس والرمح هي الأسلحة المعروفة في عهد رسول الله ﷺ، فإن ما جاء من الأحاديث يتناول كل سلاح يخترعه البشر، وهو داخل في عموم قوله تعالى: « ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ ... ﴾ »، وقد جاء النص بصيغة الأمر، وهو للوجوب، فيكون صنع الأسلحة والتدرب عليها، وحيازتها، وادخارها للجهاد أمورا مفروضة على المسلمين، فإن تخلّفوا عنها، أثِموا جميعا.

هذا ويدخل في التدريب والاعداد تربية أفراد الأمة على الشدة وصلابة العود، والصبر على المشاق، وإبعادهم عن الترف والميوعة والترهل، وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل الشام: (ائتزروا وارتدوا وانتعلوا وألقوا الخفاف، وارموا الأغراض، وألقوا الركُب، وانزوا نزواً على الخيل، وعليكم بالمعدّية، ودعوا التنعم، وزي العجم، ولا تلبسوا الحرير؛ فإن رسول الله ﷺ نهى عنه)(١٢٢). وكتب أيضا يقول: (لن تحور قوىً ما كان صاحبها ينزعُ وينزو) يعني: ينزع في القوس، وينزو على الخيل من غير استعانة بالرُكُب(١٢٣)، وكتب أيضا لأهل حمص: (علّموا أولادكم الرماية والفروسيّة والسباحة واختفوا بين الأغراض، وتَمَعْدَدُوا(١٢٤)، واخشَوْشِنُوا، واستقبلوا حَرَّ الشمس

---

(١٢٢) ابن قتيبة الدينوري ــ عيون الأخبار ــ المجلد الأول ج ٢ ص ١٣٢.

(١٢٣) المرجع ذاته ــ المجلد الأول ج ٢ ص ١٣٣.

(١٢٤) تمعددوا: أي تشبهوا بمعد في خشونة المطعم والملبس وتصلبوا ــ انظر أساس البلاغة للزمخشري.

بوجوهكم، وارموا الأغراض، وانزوا على الخيل نزوا)[١٢٥]. وكان هو يأخذ بيده اليمنى أذَنَه اليمنى، وبيده اليسرى أذَنَ فرسه اليسرى، ثم يجمع جراميزه، ويثب، فكأنما خلق على ظهر فرسه[١٢٦].

ج ــ وأما الرباط في الثغور، وحشد الجنود على الحدود مع الأعداء، فهو واجب على الأمة الإسلامية، يقول الشيرازي في المهذب: (يجب على الإمام أن يشحن ما يلي الكفار بجيوش يكفون من يليهم، ويستعمل عليهم أمراء ثقات، من أهل الإسلام المدبِّرين؛ لأنه إن لم يفعل ذلك، لم يُؤمن إذا توجه في جهة الغزو أن يدخلَ العدو من جهة أخرى، فيملك بلاد الإسلام)[١٢٧].

وإذا كان هذا واجب الإمام المسلم، حيث ينوب عن الأمة التي بايعته على تحقيق كفايات الإسلام، فإن من واجب الأفراد أن يسارعوا ولا يهملوا في الرباط، والسَّهر على ثغور الإسلام. وقد رغب رسول الله

---

(١٢٥) انظر: ابن تيمية ــ مجموع الفتاوي ــ المجلد ٢٨ ٩، ١٠، ومحمد بن يوسف المواق ــ التاج والاكليل مطبوع مع مواهب الجليل ج ٣ ص ٣٤٦.

(١٢٦) الدينوري ــ عيون الأخبار ــ المجلد الأول ج ٢ ص ١٣٣. والمواق ــ التاج والاكليل ج ٣ ص ٣٤٦.

(١٢٧) إبراهيم بن علي الشيرازي ــ المهذب ج ٢ ص ٢٩٩ ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي ــ مصر.
وانظر في هذا المعنى محمد بن أحمد الشربيني القاهري ــ مغني المحتاج ج ٤ ص ٢١٠ طبع سنة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م بيروت، وابن قدامة الحنبلي ــ المغني ج ٩ ص ١٩٧ مطابع سجل العرب ــ الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م.

في هذا العمل، وبين عليه الصلاة والسلام أنه من أعظم القُرَب التي يُتَقَرَّب بها إلى الله تعالى، قال عز وجل: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ » آل عمران ــ الآية ٢٠٠. وقال رسول الله ﷺ: « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضعُ سوطِ أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والرّوحةُ يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها »(١٢٨). وقال أيضا: « عينان لا تمسُّهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله »(١٢٩). وما أكثر الأحاديث التي اعتبر فيها الرسول ﷺ هذا العمل من أحسن العبادات، وأكثرها أجرا عند الله تعالى.

فيُعلَم مما تقدم أن على الإمام أن يُسَهِّل لكل مسلم يريد أداء هذه العبادة الإسلامية، وأن لا يمنعه من ذلك، فإن فعل كان من الذين يصدون عن سبيل الله، وعن أداء فرائضه التي فرضها على عباده.

ويقتضي هذا أنه لا يجوز أن تخلو جبهات المسلمين وثغورهم في أية لحظة من عدد كاف من المرابطين، فإذا لم تحصل الكفاية أثم المسلمون جميعا؛ فإن كان السبب يعود إلى الإمام، ومَنْعِهِ المسلمين من الرباط والجهاد تحمَّل هو معظم الوزر. وإن كان السبب من الأفراد كان على الإمام أن يجبر بعضهم على الرباط، مراعيا العدل بينهم في الاختيار.

---

(١٢٨) رواه البخاري ومسلم والترمذي ــ انظر الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٢.

(١٢٩) أخرجه الترمذي ــ انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي ج ٧ ص ١٣٨.

ويصبح الرباط فرض عين على كل من انتدبه الإمام؛ لأن الجهاد يصبح فرض عين على من يعينه الإمام لذلك(١٣٠) لقوله عليه الصلاة والسلام: « وإذا استُنفِرتُم فانفِرُوا »(١٣١)، والرباط عمل من أعمال الجهاد ونوع من أنواعه.

د ــ كذلك يدخل في الاعداد اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتعويق العدو ودفعه، إذا باغت المسلمين: من إحكام الحصون، وحفر الخنادق وبناء القلاع ووسائل المراقبة(١٣٢). وفي غزوة الأحزاب حفر رسول الله ﷺ وصحابته الخندق، وقال البراء بن عازب رضي الله عنه: رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل التراب، حتى وارى التراب شعره، وهو يرتجز برجز عبد الله بن رواحة(١٣٣) رضي الله عنه يقول:

اللهـــم لولا أنت ما اهتدينـــا
ولا تصدّقنـــــا ولا صلّينـــــا

---

(١٣٠) محمد الحطاب ــ مواهب الجليل ج ٣ ص ٢٤٨، ٢٤٩ ــ الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٢٩ هـ / أبو بكر بن حسن الكشناوي ــ أسهل المدارك شرح إرشاد السالك ج ٢ ص ٣، ٤ ــ الطبعة الأولى ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي ــ مصر. ابن قدامة ــ المغنى ج ٩ ص ١٩٧، ابن حزم الأندلسي ــ المحلى ج ٧ ص ٢٩١ ــ المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، علي أبو الحسن الشاذلي ــ كفاية الطالب الرباني ج ٢ ص ٣ ــ مطبعة المشهد الحسيني ــ القاهرة.

(١٣١) جزء من حديث متفق على صحته ــ انظر فتح الباري ج ٦ ص ٣.

(١٣٢) الشيرازي ــ المهذب ج ٢ ص ٢٢٩، الشربيني الخطيب ــ مغنى المحتاج ج ٤ ص ٢١٠.

(١٣٣) أخرجه البخاري ــ انظر فتح الباري ج ٧ ص ٣٢٢.

فأنزلـــنْ سكينـــةً علينــــا
وثَـــبِّت الأقــدام إن لاقَيْنَـــــا

وهكذا يتبين مما تقدم أن أمة الإسلام أمة مستعدة دائما لما يكفي لصدِّ أيّ عدوان يقع عليها، وتأديب المعتدين. وأن تلك التعاليم والتوجيهات الربانية لتجعل هذا الأمر في الأمة الإسلامية طبعا فيها وخلقا؛ بحيث لا تغفل عن عدوها لحظة واحدة، ولا تأمن له مهما كان حاله؛ فإن ذلك، كما أخبر الله تعالى خير وسيلة لإرهاب العدو وصدّهم عن العدوان، وهزيمتهم.

وليس ما تقدم من ذكر وجوه الإعداد حصرا لها، بل الأوامر عامة والقاعدة شاملة، ومؤداها تكليف الأمة الإسلامية بتحقيق حالة من الكفاية في السلاح والتدريب والاعداد للدفاع عن الدعوة الإسلامية، وتحقيق أهدافها بالطرق الربانية.

خاتمة
دلالات هامة للبحث

إن ما تضمنه البحث من الحقائق النظرية والواقعية ليعطينا كثيرا من الدلالات الهامة على طريق الخلاص من حالة الهزيمة والخذلان التي صار إليها المسلمون في هذا الزمان، منها:

أولا: ـــ تكشف لنا تلك الحقائق عن السر الكامن وراء النصر الذي ظل حليفا للمسلمين خلال قرون متطاولة من الزمان، بالرغم من قوة الأعداء وتنوعهم، وتنوع أساليبهم وخططهم العسكرية، وكثرة جندهم ووفرة عُددهم.

فإن العقيدة الربانية التي جاء بها دين الإسلام، وأسكنها في قلوب المسلمين وعقولهم، وكذلك توجيهاته ونظمه، وقيمه وموازينه التي سلمها لهم، ليُحَكِّموها في حياتهم، كل ذلك كان وراء جميع الخوارق والمعجزات والبطولات والانتصارات.

وليس هناك من أسباب غير هذه الأسباب، ولا دوافع غير هذه الدوافع. ومن يدَّعي غير ذلك ويختلق للتاريخ تفسيرات غير هذه التفسيرات، فإنما يفتري ذلك، بدافع الحقد على الإسلام، والكيد للمسلمين، وإبعادهم عن نبع القوة، وأسباب النصر، لتظل سبيله

ممهدة لاستعمار الأرض، واستعباد الناس، والاستعلاء والاستكبار عليهم، وتحقيق أطماعه وشهواته.

ثانيا: ــ تدل تلك الحقائق على أنه ليس لأمتنا الإسلامية طريقٌ للخلاص من الذل والهزائم المتلاحقة التي حلت بها، سوى طريق واحد، هو أن تحمل بصدقٍ الإسلام عقيدةً وتربيةً وأنظمةً. والذين يبتغون الخلاص بغير الإسلام، إنما يطيلون أمد السبات، ويضارُّون على الطريق الصحيح للنجاة.

ثالثا: ــ تكشف لنا تلك الحقائق عن سبب خوف الأعداء من الإسلام ومن عودته إلى حياة المسلمين، وعن سبب موقفهم العدائي التنكيلي من كل داعية إلى الإسلام، ومن أية محاولة جادة لتحكيمه في البلاد الإسلامية. كما يفسر لنا أسلوبهم المستمر في التشكيك في عقائد الإسلام ومبادئه وأحكامه وأعلامه المؤثرين في تاريخ الأمة الإسلامية.

ليس هناك من سبب لكل ذلك سوى إدراكهم لدور الإسلام في بعث الحياة في الشعوب الإسلامية، وتقويتها، وتأهيلها للرد على أي عدوان يقع عليها، بل تأهيلها لقيادة العالم نحو الخير والعدل والصلاح، وبالتالي الوقوف أمام أطماعهم في السيطرة على الشعوب ومقدراتها.

رابعا: ــ تعطينا تلك الحقائق التي وردت في البحث ميزانا سليما صائبا، نميز به الصادقين في دعوى الحرص على الأمة والأوطان من

أولئك الكاذبين المخادعين الذين يرفعون شعارات حب القوم والأوطان وهم يقفون أمام عودة الإسلام متكاتفين في ذلك مع العدو الخارجي، الذي تقوم خططه في مواجهتنا على إبعادنا عن مصدر قوتنا وهو الإسلام، بما فيه من عقائد وتربية ونظم، فبعد أن عُرِف دور الإسلام في تأهيل الأمة للجهاد، أفرادا وجماعات، لا يجوز عقلًا ولا مصلحةً أن يوصِف شخص بحبِّ الوطن والقوم، وهو يُعادي ذلك الدين، أو أنْ يُشْهَدَ لجماعة بالعمل من أجل الأوطان، وهي تقف مع العدو الأجنبي في مواجهة الإسلام.

الفهرس

المقدمة..... ٧

الفرع الأول ــ أثر العقيدة الاسلامية في تكوين الشخصية الجهادية..... ١٠

المطلب الأول ــ أثر عقيدة الايمان بالله عز وجل..... ١٠

المطلب الثاني ــ أثر الايمان بالرسول ﷺ..... ٢٦

المطلب الثالث ــ أثر الايمان باليوم الآخر..... ٢٨

المطلب الرابع ــ أثر الايمان بالقدر..... ٣٦

المطلب الخامس ــ أثر بعض العقائد والتصورات الاسلامية الأخرى..... ٤١

الفرع الثاني ــ أثر التربية الاسلامية في تكوين الشخصية الجهادية..... ٤٦

المطلب الأول ــ الأخلاق الجهادية الفردية التي تثمرها التربية الاسلامية..... ٤٧

تقوى الله عز وجل ومحاسبة النفس وضبط الشهوة..... ٤٧

حماسة القلب..... ٥٠

الصبر والثبات..... ٥٥

التضحية بالنفس والمال..... ٦٤

الطاعة والنظام ٦٦
الحذر واليقظة ٦٩
التخلص من الأخلاق السلبية المعطلة ٧٠
المطلب الثاني ــ الأخلاق الجهادية الجماعية ٧٣
الوحدة ٧٣
توثيق الرابطة ٧٧
إخلاص الولاء لله ورسوله وللمؤمنين ٨٤
الاستقلال والتميز ٩٠
إعلاء القيم الجهادية ٩٠
التنظيم ٩٧
الإعداد المادي ٩٩
خاتمة ــ دلالات هامة للبحث ١٠٩
الفهرس ١١٣